مُلك يوسف

١

/ رواية
I.S.B.N: 978- 977–6555- -
رقم الإيـداع: / ٢٠١٦
الطبعة الأولى: ٢٠١٧
تـألـيـــف : إبراهيم عبد الجوّاد
تصميم الغلاف :
النشر والتوزيع : تشكيل للنشر والتوزيع
المـديـر العـام: سيد شعبان
دار تشكيل للنشر والتوزيع
Email:publish@tashkeel- publishing.com
Mobile: 01149480827

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحـبه للمساءلة القانونية، والآراء والـمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

مُلك يوسف

"كان كل ما يملكه أرخَبيلاً، وملاكَين، وهيَ."

روايـــة

إبراهيم عبد الجوّاد

3

الإهداء

إلى **المليكة**. .

صاحبة الفضل الأولى في تكوُّن "مُلك يوسف" برأسي.

مقدمة

نصارع الموت لنأجّله قدر الإمكان.. ونصارع الحياة كي نبقى على قيدها قدر استطاعتنا، نصارع الدين لنتشبّث به.. ونصارع الرب كي لا يترك يدنا، نصارع عقولنا فنختار قلوبنا.. ونصارع قلوبنا كي تتركنا لعقولنا، نصارع المختلف إرضاءً للقطيع.. ثم نصارع القطيع في صدورنا ونَسبُّه في ظهره.

الإنسان في صراع دائم مع كل ما هو حوله منذ ميلاده وحتى وفاته، بل منذ خروج نطفته من ظَهر أبيه ـ مصارعًا أقرانه من حيوانات منوية على تلقيح البويضة ـ وحتى الخلود إلى ما لا نهاية ـإما بجحيم يصارعه مغلوبًا أو بجِنان من سبع طبقات يصارع ليرتقي بها ـ. يكاد يكون الصراع هو وحَدة تكوين هذا الكون بكل ما يحويه من كائنات وأشياء، فليس نبذه أو الهروب منه إلا ضربٌ من الانتحار، بينما خوضه فرض؛ فلنتعلم الانشغال بما نواجهه من صراعات، لا أن نُزِد عليه مصارعة بعضنا البعض!.

القاهرة، نوفمبر ١٩٩٩

خرج من وكالة الأنباء طائراً من الفرحة هو وزملاؤه الثلاثة الصحفي "ديڤيد" والمصوران "رامي" و"مصطفى"، بعد وقوع الاختيار عليهم للسفر إلى أستراليا لتغطية احتفالاتها بالألفية الثالثة، أخذوا يركضون ويقفزون في الشوارع وهم يسبّون الأديان جميعًا للأسفلت!، ويلتقطون الصور التذكارية على كوبري قصر النيل وكأنهم قد اختيروا في قرعة الهجرة!، وبعد يوم احتفالي على الطراز العشريني عاد إلى المنزل ليزفّ إلى أسرته الخبر السعيد الذي سيضاف إلى أرشيفه الصحفي الضئيل نَسبيًا حتى الآن، ولكنه لن يكون كذلك في بحر شهر بعد عودته بتغطية متميزة للاحتفالات، فحظى باحتفال إضَافي علَى الطراز الأسري.

* * *

القاهرة، مساء الأربعاء ٢٢ ديسمبر ١٩٩٩

ـ ناس ليها سيدني وناس مالهاشي..

ـ- أيوة أُرّي بقى يا أرّارة وبوظيلنا السفرية، ده بدل ما تقوليلي تروح وترجع بالسلامة يا حبيبي!..

ـ ماشي ياعم تروح وترجع بالسلامة طبعًا، بس هتجيبلي إيه بقى من أستراليا؟..

ضحك وهو يقول ساخرًا: هجيبلك كانجرو..

ـ يا رخم..

ـ سعادة السفيرة "ريموندا" تؤمر بإيه هدية عيد ميلادها من أستراليا؟..

ـ أنا بهزر معاك، عايزاك بس تيجي بسرعة يا "يوسف"، انت عارف إني مابقدرش أبعد عنك يوم واحد..

ـ ماتقلقيش يا حبيبتي هما ١٠ أيام بالمشيئة وهاجي، وبرضه هجيبلك الكانجرو.

ضحكا وقبّلها في جبينها كعادته قبل النوم.

كان شديد الارتباط بأخته، وهي فتاة لا تخلو طباعها من الرقة والحزم في آن واحد، فهي صديقته الوحيدة وبئر أسراره، فضلًا عن كونها حمامة السلام بينه وبين "كريستينا" ـ أو الكونتيسة كما يدعوها ـ ، وهي زميلة ريموندا بالفرقة الرابعة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والتي لفتت انتباهه منذ شهرين خلال زيارة سريعة للجامعة لم يكررها سوى مرتين، كذلك علاقته بأبيه المهندس "يحيى غبريال" ـالذي يشبهه كثيرًا في الطباع والملامح ـ وأمه المهندسة "سيلڤيا" كانت علاقة

متينة مبنية على الثقة، هذه هي الأسرة الصغيرة الهادئة التي تربى يوسف بينها على الأخلاق والإنسانيات، بالرغم من أنه لم يكن دائم التردد على الكنيسة، ولم يفضّل الانخراط بالخدمة الكَنَسيّة ـالتي انخرطت بها أخته ومعظم أبناء وبنات كنيسته الأرثوذكسيةـ ليس لضعف إيمانه إنما خوفًا من عدم سماح وقته الضيق بتأدية خدماته تجاه الكنيسة على الوجه الأمثل، فهو لم يعتاد أن يَعد وهو في موقف ضعف فلا يَفي، خاصة وأن العمل الصحفي يشغلَ جُلّ وقته منذ كان يتدرب بصحيفة قومية وهو طالب بالفرقة الثانية بكلية الإعلام، وحتى تخرجه منذ عامين والتحاقه بالوكالة.

....

في مساء اليوم التالي حلق يوسف لحيته وارتدى معطفه الثقيل، واستعد للرحيل مصطحبًا حقيبة سفر صغيرة نسبيًا ـ تناسب رحلته القصيرة ـ جهزتها له ريموندا الليلة الماضية قبل أن تغرقه بسيل من الدعابات والصلوات، واضعة بها ملابس خفيفة ـتناسب مناخ أستراليا الحار في هذا الوقت من السنةـ فضلًا عن بعض متعلقاته الشخصية.

عانق أخته التي همست في أذنه قائلة: الكونتيسة بتسلم عليك وبتقولّك خلي بالك من نفسك..

فابتسم هامسًا: ربنا موجود..

ثم التفتَ إلى أمه التي عانقته وهي تقول في شيء من الأسى: دي أول مرة من ٢٣ سنة ماتحضرش الكريسماس وعيد ميلاد أختك معانا يا يوسف..

فابتسم وقبّل يديها وقال مداعبًا: أكل العيش مُرّ يا أمي، صلّيلي.

فخلعت سيلڤيا قلادتها الذهبية التي تحمل صورة للسيدة العذراء مَريَم، ولفّتها حول عنقه وهي تتمتم بالصلوات للعدرا أم النور بأن تحميه.

قَبَّل يوسف القلادة وهو ينزل سلالم البناية، ثم استقل السيارة بجوار والده في اتجاه المطار، والذي أخذ طوال الطريق يلقّنه الوصايا العشر: تخلي بالك من نفسك كويس وماتسرحش، وافتكر إنك رايح في شغل مش رايح تعِسّ..

- ماتقلقش يا بابا أوعدك إني مش هعِسّ لإني أصلًا ماعرفش يعني ايه تعِسّ دي..
- يا واد بطّل غلبة واسمع الكلام، خليك فاكر إن جسمك ده ملك المسيح، جواه روح ربنا، لازم يفضل طاهر عشان يليق بروح ربنا

يا يوسف، خلي اسمك على مسمّى يابني عشان خاطر أبوك وأمك..

ـ جرى ايه يا بوب يوحنا انت ليه محسسني كده إني شايله على كتفي؟!، روّق بقى أومّال يا حاجّ..

ـ ولد!!، أنا مش قُلت لك مليون مرة بلاش كلمة يا حاج دي؟!..

ضحك يوسف قائلًا: هي دي اللي لفتت نظرك يعني؟!، والمَسيح الحيّ انت طيب أوي يا بوب..

ثم أضاف وهو يقبّل يد أبيه: ماتخافش يا بابا هخلي بالي من نفسي..

فربّت يحيى على يد ابنه قائلًا: ربنا يحميك يابني، ويرجعك لينا بالسلامة.

في صالة الركاب تقابل الزملاء الأربعة رامي ومصطفى وديڤيد ويوسف، وأنهوا معًا إجراءات الجوازات والتفتيش، ثم أخذوا يتحدثون عن مدينتيّ سيدني وملبورن وما شاهدوه بالنشرات العالمية عن تجهيزاتهما للاحتفالات، وعن كونهم محظوظين ليشهدوا دخول العالم الألفية الثالثة من بقعة تبعد عن موطنهم بأكثر من ثلاثة عشر

ألف كيلومتر، يلحقوا من خلالها بالألفية الجديدة قبل أن يلحق بها أهلهم بتسع ساعات!.

أخذتهم الحماسة في التخيلات والحديث مع آبائهم حتى سمعوا النداء المنتظَر على أحرّ من الجمر: يرجى من ركاب طائرة طيران الإمارات رحلة رقم ١٠٦٨ والمتوجهة إلى سيدني- كينجسفورد سميث التوجه إلى الطائرة من خلال البوابة رقم ٧.

* * *

القاهرة، مساء الخميس ٢٣ ديسمبر ١٩٩٩

ارتدت فستانها الوردي المنقوش بزهور بيضاء وفوقه (بوليرو) من الصوف الأبيض وأحكمت حجابها على رأسها، وحزمَت أمتعتها في حقيبتيّ سفر كبيرتين جدًا ـ وكأنهما تحويان غرفة بأثاثها-، وفي الجيوب الخارجية حشرت بضع متعلقات خفيفة من بينها مصحفًا صغيرًا أهدته لها أمها في ذكرى ميلادها السابعة، وألبوم قديم تجمعها صوره مع أسرتها، والذي لم تتمالك نفسها أمام فتحه وتقليب بعض صفحاته سريعًا قبل أن تضعه بالحقيبة، ها هي صورة عمرها عشرين عامًا تظهر فيها أمها "چيهان" مرتدية (تاير) من تَنُّورَة سوداء ضيقة تعلو ركبتيها بقليل و(جاكيت) أصفر مُنقّط بالأسود وشعرها الكستنائي منسدل على كتفيها -قبل أن تتحجّب بعامين- وهي تحملها

بين ذراعيها في عيد ميلادها الأول، وأخرى تجمعها بوالدها الدكتور "سليمان عبد العزيز" وهي في السادسة من عمرها معتليةً مكتبَهُ في كلية الصيدلة ـحيث يعمل أستاذاًـ ولافّةً ذراعيها حول عنقه، وأخرى وهي في الخامسة عشر تقبّل أخاها "مالك" يوم سبوعه، وغيرها وهي في التاسعة من عمرها تجمعها بأختها "مريم" ـالتيَ تصغرها بأربع سنواتـ على شاطئ جمصة مرتديتان (المايوه) وتلعبان بالرمال، دائمًا ما كانت تُضحكها هذه الصورة الأخيرة حين تراها إلا تلك المرة ابتسمت في شجن وسرحت قليلًا، ولم تنتبه إلا على صوت والدها ينادي: يلا يا "مُلك" هنتأخر ع الطيارة.

فمسحت دمعتها العابرة وأغلقت جيب الحقيبة على الألبوم وخرجت من غرفتها مستعدة للرحيل.

جلست بالكنبة الخلفية بين أمها وأختها اللتين أغرقتاها بالقبلات والدموع، وفي المقدمة كان يقود والدها السيارة وهو ينظر إليها في المرآة كل خمس ثواني، وبجواره يجلس مالك، الطفل الهادئ قليل الكلام الذي لم يدرك عقله معنى أن تغب أخته عن المنزل لمدة عام كامل، ولم يدرك قلبه بعد لهفة انتظَار المكالمات الأسبوعية القصيرة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وقراءة الجوابات المملوء نصفها بالدموع والوَحشة، والنصف الآخر بإرسال السلام لأفراد العائلة فرد فرد، فلم يكن وجهه يحوي أكثر

من جمود مستشعر خطورة الموقف الأسري وحسب، فهو لم يجرب طوال حياته ـ المتألفة من ست سنوات ـ غياب أحد أفراد أسرته عن المنزل لأكثر من أربعة وعشرين ساعة!.

وصلوا إلى المطار أخيراً وأنهت مُلك ـ برفقة والدها ـ إجراءات الجوازات وتفتيش الحقائب، وانتظرت الأسرة موعد إقلاع الطائرة وسط قلق وانقباض قلب چيهان الواضح علاماته على وجهها، حتى جاء صوت مذيعة المطار المرتقب: يرجى من ركاب طائرة طيران الإمارات رحلة رقم ١٠٦٨ والمتوجهة إلى سيدني ـ كينجسفورد سميث التوجه إلى الطائرة من خلال البوابة رقم ٧.

عانقت أسرتها وقبّلت مالك في حنان، ثم اتجهت نحو البوابة وألقت عليهم نظرة طويلة تخللتها دموعهم جميعًا قبل أن تغوص في جموع المسافرين.

....

صعد الشباب إلى الطائرة والتزم كلٌ منهم مقعده، وكانت مقاعد مصطفى ورامي وديڤيد متلاصقة بجانب الطائرة الأيسر، بينما أتى مقعد يوسف خلفهم بصفّين، وبالتحديد في مؤخرة الطائرة بجانبها

الأيمن، ملاصقًا لمقعد تجلس عليه فتاة حسناء ترتدي فستانًا ورديًا، فحسده أصدقاؤه على حظه الناري ـ كالعادةـ مشيرين له بنظرات متوعّدة.

في تمام العاشرة أقلعت الطائرة، وما هي إلا دقائق وبدأ الملل يتسلل إلى نفوس الركاب، منهم من وضع في أذنيه سماعات (الووكمان)، ومنهم من دسّ رأسه بالنافذة ـ ليشاهد مصر بالليل من فوق!ـ، ومنهم من ملّ الحديث وآثَر النوم كـرامي، أما مُلك فأخذت تنظر لقرص البدر المكتمل في إعجاب وتعجّب لقربه حتى تمنت لو تمد يدها من النافذة لتلمسه، ثم بدأت تعيد التقليب في صفحات ألبوم صورها الذي أخرجته هو والمصحف قبل إيداع حقيبتيها بباطن الطائرة، ليطردا عنها بعض الملل خلال رحلتها ـالممتدة ليوم كاملـ إلى جنوب شرق العالم. استوقفتها بعض الصور، وأخرى ألقت عليها نظرات سريعة بمجرد تقليب الصفحات، كالصور العائلية الرتيبة التي تجمع أخوالها وأعمامها، ولكن استوقفتها قليلًا تلك التي تظهر فيها عمتها "زينب" ـالتي لا تطيقهاـ، وابنتها "مروة" ـالتي لا تطيق نفسهاـ وهي تنظر لمُلك بحنق وغيرة وكأنها ستأكلها!.

كان يوسف يتابعها بطرف عينه مفكراً في مدخل للفت انتباهها بغرض التعارف، فأخرج من جيب معطفه هاتفًا محمولًا ـ أعطته له الوكالة لأغراض العمل مثلما أعطت آخرين لزملائهـ وأخذ يعبث به طويلًا رغم إمكانياته المحدودة المقتصرة على الاتصال وإرسال

الرسائل، ولكن هذا الجهاز الأسود ماركة (إريكسون) ـالذي يشبه البيادة في حجمه!ـ لم يُثر حفيظة مُلك أو يلفت انتباهها، فوالدها يقتني شبيهه بطبيعة عمله كأستاذ جامعي.

زفر يوسف في ضيق حين فشلت خطته، فأعاد المحمول لجيبه ثم تابع اقتحامه ألبومها من جديد، حتى تعلّق نظرها بصورة تبدو حديثة ترتدي فيها روب التخرج والقبعة السوداء وتمسك في يدها شهادتها الملفوفة بشريط أحمر، ابتسامتها ممتدة من الأذن للأذن كاشفة عن بياض أسنانها المرصوصة كاللؤلؤ، ومثبت على أنفها الدقيق نظارة ـ كبيرة بعض الشيء بالنسبة لوجهها الصغيرـ أخفت عدساتها خضرة عينيها التي لاحظها قبل الجلوس إلى جوارها، وراوده الظن الذي يطرأ على بال أغلبية الناس حيال تلك الهيئة، فهي تبدو في هذه الصورة كطبيبة.

أفاقت من شرودها على صوت ذكوري اقتحم أذنها قائلًا: دكتورة؟..

تسمَّرَت للحظات من وقع المفاجأة ثم ضحكت قائلة: اللهم حقّق..

ـ دي يعني أه ولا لأ مافهمتش؟!..

ـ دي يعني لسه، ادعيلي..

ـ اللهم حقّق..

ضحكت مرة أخرى مشيحة بوجهها وهي تغلق الألبوم ثم قالت: آمين..

لمح اسمها مطرّزًا على غلاف الألبوم فتشجّع قائلًا: يوسف يحيى، صحفي، اتشرفت بمعرفتك يا دكتورة مَلَك..

ـ مُلك بضمّ الميم، مُلك سُلَيمان، خريجة آداب تاريخ دفعة السنة دي..

ضحك يوسف لغرابة اسمها ثم لملم ضحكاته قائلًا: sorry أنا آسف اسمك غريب شوية!، بس حلو..

ـ ولا يهمك أنا واخدة على كده..

ـ لا بأمانة عجبني..

ابتسمت وهي تقول مداعبة: الله يحفظك..

ـ واضح إن والدك كمان بتاع تاريخ عشان كده سماكي مُلك سُلَيمان..

ـ لأ بابا صيدلي، بس مهتم بالتاريخ وهو اللي حببني فيه..

ـ امم تبقي مسافرة في منحة مش كده؟..

ـ هو بالظبط كده، دراسات عليا في جامعة سيدني، وعقبال يا رب ما آخُد الماجستير والدكتوراه بقى..

ـ على كده شكلك مطوّلة بقى في أستراليا!..

ـ أول اجازة بعد سنة، ده لو ربنا وفقني في السنة دي، ولو ماوفقنيش بقى هتبقى اجازة مؤبدة بلا رجعة..

ـ لا إن شاء الله ربنا يوفقك، واضح إنك بتحبي الدراسة أوي..

ـ بحب التاريخ أوي، خاصة الحضارات القديمة وثقافات السكان الأصليين وهو ده تخصصي، وانت مطوّل في أستراليا؟..

ـ لأ الحقيقة أنا رايح في شغل مع ٣ زمايلي، تغطية صحفية لاحتفالات أستراليا بالألفية التالتة..

أطلقت مُلك ضحكة ساخرة عن غير قصد ثم قالت وهي تلملم ضحكاتها: sorry، بس أنا كل ما اسمع موضوع احتفالات الألفية التالتة ده بقع من الضحك..

ـ طب ما توقعيني معاكي! . .

ـ أصلي الحقيقة مش مصدقة إن العالم كله مش واخد باله إن سنة ٢٠٠٠ ماهياش بداية الألفية التالتة، دي متممة الألفية التانية، يعني الألفية التالتة تبدأ ١ يناير ٢٠٠١ يا فندم..

تصلّب وجه يوسف للحظات من وقع الصدمة وهربت منه التعبيرات، وكأن أحدهم ضربه على رأسه بمطرقة، كيف لم يخطر بباله من قبل هذه الملحوظة السهلة جدًا؟!، ثم فاق على إدراكه لمدى ذكائها رغم يُسر الأمر، أو بالأحرى مدى غباء العالم!، ثم قال ضاحكًا: واضح إن الصنف اللي العالم بيضربه اليومين دول عالي حبتين، وأنا أولهم..

ضحكا ثم قالت مُلك: يعني راجعين مصر بعد أسبوع إن شاء الله؟..

- ١٠ أيام، أستراليا عاملة برنامج احتفالات ضخم جداً لافت انتباه الميديا العالمية، المفروض بعد بكرة هنروح نغطي الاستعدادات للاحتفالات في ملبورن، وبعدين نرجع نغطي الاستعدادات في سيدني، وبالمرة هنعمل تغطية عن استعدادات سيدني للأولمبياد اللي هتبدأ في سبتمبر الجاي، ونستنى بقى الاحتفال ببداية الألفية اللي طلعت فاشوش دي..

- ترجعوا بالسلامة إن شاء الله..

- الله يسلمك..

مرت لحظات صمت لم يجد فيها أي منهما شيئًا يقوله، وخاف يوسف أن تتحول اللحظات إلى دقائق فتلزمه الصمت حتى حدوث أي موقف يجدد الحديث، فحاول الإمساك سريعًا بأي خيط يجرّ الحديث قائلًا: بس واضح عليكي إنك أول مرة تسافري برّه مصر مش كده؟..

- عرفت منين؟!..

- كنت حاسّك مرعوبة أول ما الطيارة طلعت..

- سافرت مرة عُمرة وأنا صغيرة بالباخرة مع بابا وماما، بس الحقيقة دي أول مرة أركب طيارة، ماكنتش متخيلة إن طلعتها بالصعوبة دي..

ـ هي مش صعبة أوي بس احنا عشان درجة سياحية قاعدين في آخر الطيارة، فبنحس بطلعتها وهبوطها أكتر من باقي الركاب..

ـ واضح إنك بتسافر كتير..

ـ مش كتير أوي يعني، كل سنتين تقريبًا بنسافر مرة لقرايبنا في لندن، أصل عِيلة ماما أصولها إنجليزية..

ـ امم مادة شيقة للدراسة..

ـ يا doctor مُلك تاريخ عيلة يوسف يحيى كله بسكانه الأصليين تحت أمرك يا فندم..

ضحكت مُلك وهي تقول: ربنا يخليك..

ـ بس ليه حاسّك مش مبسوطة أو خايفة رغم حماسك للمنحة..

ـ دي أول مرة أبعد فيها عن أهلي، أول مرة أبات برة البيت أصلًا، مش متخيلة بجد ازاي هقضي سنة من غيرهم، وبعد السنة دي يا ترى هتعوّد ولا هفضل قلقانة كده..

لم يجد يوسف ما يقوله لها، فهو لم يغـب عن أهله من قبل لفترة تتعدى رحلاته الصيفية مع أصدقائه بالعجَمي وفايد، أو رحلات العمل القصيرة بقُرَى الصعيد والدلتا، وأدرك أن أي محاولات لنصحها أو التخفيف عنها ستبدو سخيفة وتقليدية، فوجد نفسه يقول بعفوية: خلي بالك من نفسك.

فابتسمت مُلك في راحة ممزوجة بشيء من الشجن، ثم أشاحت بوجهها لتتطلع من النافذة التي أطلّت على صحراء شبه الجزيرة.. وغاصت في بحر رمال شرودها.

ساعتان مرّتا في حديثهما شَعَرا وكأنهما دقيقتين، ومرّت فوقهما ساعة أخرى ونصف الساعة قُضيت بين تيه مُلك ـ الذي قطعه تناولها وجبة السحور ـ وبين نوم يوسف كالثَمل، حتى هبطت الطائرة في مطار دبي لقضاء ترانزيت مدته خمس ساعات.

* * *

مطار دبي الدولي، فجر الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩

يوسف: دماغي هتتفرتك من الصداع، نمت في الطيارة زي السكران حوالي ساعة وصحيت على الهبوط مخضوض..

رامـــي: ماهو طبعا لازم تنام زي القتيل، ما انت خلعت يابن الّذينَ وسبتني أنا وسط جوز القرود دول ماعرفتش أنام من رغيهم، طول عمر حظك نار..

يوسف: مش أنا اللي حظي نار ياض، أنت اللي حظك دكَر..

ديڤيد: مش نار ازاي بقى يا عم چـو، ما انت كنت مقضيها رغي طول الطريق مع القطة، وتلاقيها كمان هي اللي خضّتك، قصدي صَحّتك..

يوسف: بلا قطة بلا بطة!، البنت محترمة يا ديـڤ مش بتاعة الجو ده..

مصطفى: وانت بقى غيران عليها ولا ايه يا يوسف بيه!..

يوسف: قصدك ايه يا مصطفى؟!..

مصطفى: قصدي اللي فهمته، انت ماحستش بنفسك وانت عمال تستخف دمك عليها وضحككم جايب آخر الطيارة؟!، اللي في دماغك ده تمحيه يا يوسف، وماتنساش إنها مسلمة وانت مسيحي..

رامـــي: جرى ايه يا درش!، ماحصلش حاجة تستاهل اللي انت بتقوله ده..

مصطفى: واحنا بقى هنستنى لما يحصل ولا ايه يا أستاذ رامي؟!..

رامـــي: فيه ايه يا مصطفى انت هتقفش فيا أنا كمان؟!، احنا كلنا بنهزر يا أخي..

مصطفى: طب هما وبيهزروا لأنها ماتفرقش معاهم إنما انت مش مكسوف من نفسك وانت بتهزر معاهم على واحدة مسلمة؟!، ايه ماعندكش دم؟..

يوسف: مصطفى!!، كفاية لحد كده، مالوش لزوم تخسروا بعض بسبب أوهام في دماغك، واللي بيني وبينك من دلوقتي شغل وبس.

كثيراً ما كان يضيق يوسف بأسلوب مصطفى في مواقف مختلفة، فهما لم يكُونا أكثر من زميلين حملتهم ظروف العمل على قضاء بعض الوقت سويًا، بعكس رامي الذي جمعته به صداقة قوية منذ أيامه الأولى بالوكالة، أما ديڤيد فكان رفيق دربه منذ الصغر، فهما أبناء كنيسة واحدة، وسارت حياتهما بالتوازي في الدراسة والعمل.

خرج يوسف من صالة الانتظار غاضبًا وهو يشعل سيجارته، ولحق به ديڤيد ورامي لتهوين الموقف، تاركَين مصطفى حتى تهدأ ثورة غضبه، ولكن مصطفى لم يهدأ، بل زاد تصرفهما ـ خصوصًا رامي ـ من استيشاطه، متعهداً بالتصدي لهذا العبث بعد وصولهم أستراليا، حال فكر يوسف في مصاحبة تلك الفتاة خلال فترة عملهم هناك.

....

بعد انقضاء ساعات الترانزيت الخمس صعد الركاب إلى الطائرة نفسها، والتزموا مقاعدهم لاستئناف رحلتهم إلى مطار كينجسفورد سميث.

تبادلا التحية ثم ربطا أحزمة الأمان، هذه المرة كانت تبدو أكثر إرهاقًا وكسلًا، وظهرت على عينيها علامات النعاس، فبادرها يوسف بمجرد الإقلاع وفك الأحزمة: شكلك عايزة تنامي..

- حاسّة إني تعبانة جدًا، امبارح مانمتش خالص من كتر القلق، والنهارده حاولت أنام شوية في المطار بس برضه ماعرفتش، وانت نمت؟..

- ما أنا كنت مقتول جنبك ع الكرسي قبل ما ننزل في دبي..

- ساعة واحدة كفّتك؟!..

- أكيد مالحقتش، أنا صحيت مصدع جدًا وكنت ناوي أنام شوية في صالة الانتظار، بس...

سكت يوسف فجأة ولم يجد ما يقوله عن مشاجرته مع مصطفى، فنظرت له في استغراب مستدركة عن السبب الذي يحاول إخفاءه بشكل مفضوح!، فضحك في محاولة ـ فاشلة ـ منه لإقناعها بأن السبب تافه، ثم قال: بس أصحابي يا ستي أكلوا دماغي بالكلام عن أستراليا، فوّقوني..

صمتت للحظة ثم هزّت رأسها مبتسمة ابتسامة خبيثة وقالت: ما علينا!..

فأشاح يوسف بوجهه قبل أن تفضحه تعبيراته أكثر من ذلك، وقال وهو يقدّم ساعة يده لساعتين وفقًا للتوقيت المحلي للإمارات: حاولي تنامي شوية، احنا لسه قدامنا حوالي ١٥ ساعة طيران متواصل على ما نوصل سيدني..

ـ أوكيه، وانت كمان حاول تنام شوية، شكلك مجهد جدًا..

ـ حاضر.

غاصت مُلك في مقعدها محاولة الاستسلام للنوم، وأخذ يوسف يرقبها بطرف عينه حتى غابت، أما هو فغاب في شروده، أخذت التساؤلات تضرب عقله فجأة، وأخذ رأسه يدور معها محدثًا نفسه: يا ترى عرفت أو لاحظت إني مسيحي؟..

ـ ماعتقدش، أنا ماقُلتش حاجة تدل على ده، أنا حتى ماقُلتش اسمي الثلاثي..

لم يعرف إن كان ذلك يفرحه أم يقلقه، ربما كلاهما!، قد تكون ممن لا يحبون التقرب من المسيحيين، وبالتالي كانت ستنسحب من الحديث شيئًا فشيء حتى يطبق فمه على لسانه، هي بالطبع فتاة جميلة

الملامح، شقراء، ميّز ذلك من خُصَل شعرها الصفراء التي يظهر جزء يسير منها من تحت مقدمة حجابها دون قصد، فضلًا عن عينيها الخضراوين، وبشرتها البيضاء الصافية، كما أنها ودود طيبة الخصال، على الأقل لم يبدر منها ما يبدي غير ذلك، حتى الوقت لم يشعر بمروره في حديثهما.

وجّه نظره إليها، بدت وهي نائمة كطفلة، تشبه كثيراً صورها القديمة التي استرق النظر إليها، ثم سرح في وجهها محدثًا نفسه مجدداً: ايه يا چـو!، انت معجب بالبت ولا ايه؟..

- هي جميلة ومريحة إنما اكيد الأمر لا يتعدى بالنسبالي الصداقة، أقدر أقول إني اتمنى الصراحة نكون أصحاب..
- المصيبة لَتكون هي اللي أعجبت بيك..
- طالما ماتعرفش إني مسيحي يبقى الاحتمال ده وارد..
- ياريتني كنت قُلت أي حاجة تعرّفها، المرة الجاية لازم ألّمح لها.

لم يكن إعجابه بها يتعدى الارتياح لها، ولم يقصد الانجذاب العاطفي، فهو لديه صديقات وزميلات مسلمات بالعمل ومنذ أيام الجامعة، بعضهن ذات شخصيات جذابة ولكنه لم ينجذب عاطفيًا لأي منهن، فهي فكرة مرفوض حتى التفكير فيها بطبيعة العادات والتقاليد الاجتماعية قبل أن ترفضها الديانتان!، ولذلك شعر بشيء

من الاشمئزاز في اتهام مصطفى له، وكأنه يتهمه بإقامة علاقة مع أخته ريموندا!.

* * *

المحيط الهندي، مساء الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩

استيقظت مُلك بعد خمس ساعات على آشعة غروب الشمس، التي لونت السماء بلون برتقالي سرعان ما ذاب واختفى، ليظهر كل ما وراء نافذة الطائرة أزرق بلون السماء والمحيط، زُرقة أخذت ترقبها مُلك لثوانٍ وهي تعتم شيئًا فشيء، وكأن أحدًا ما يسدل ستاراً أسود خلف زجاج النافذة!.

لقد نامت كثيراً، كانت لها ليلتان لم يذُق جفناها فيهما طعم النوم، انتبهت إلى يوسف الذي كان يغطّ في نوم عميق، وقد ظهر عليه الإرهاق ـ هو الآخر ـ وهو نائم غير معتدلة وضعيته، وأخذها عقلها إلى التفكير في حديثهما، بدا لها شاب لطيف، خفيف الظل، تبدو عليه الشهامة وطيبة القلب، اجتماعي بشكل واضح، هوّن عليها الكثير من قلق وملل الرحلة الطويلة، لم يبدر منه ما يزعجها، بالرغم من اقتحامه لها لفتح حوار لكنه لم يتجاوز في الحديث، وبالرغم من كونه مسيحي لم يرهَب محاولة التعرف إليها!، جريء هو بشكل ذكي، تمنت لو كان مطيلًا إقامته في سيدني لكانا صديقين مقربين، فهي

غير اجتماعية لدرجة تجد معها صعوبة في تكوين صداقات جديدة بشكل سريع، ولا تعرف أحداً في أستراليا ـغيرهـ.

تناولت وجبة إفطارها ثم بدأ الملل يتسلل إليها ـ من دونهـ، فالتقطت مصحفها الصغير وبدأت تقرأ القرآن، لم تعلم المدة التي قرأت خلالها، ربما ساعة، ربما نصف!، حتى سمعت صوت دوي خارج الطائرة وشعر الركاب بهزة ليست بهيّنة فاق على إثرها يوسف فزعًا، فصرخت مُلك وتعالت أصوات بعض الركاب في قلق، استغرق عقل يوسف ـالذي لا يزال نائمًاـ عشر ثوانٍ كاملة حتى استوعب المشهد، وسأل مُلك في فزع: فيه ايه؟!..

ـ مش عارفة!، احنا فجأة لقينا صوت حاجة فرقعت والطيارة اتهزت جامد..

سأل يوسف المضيفة التي مرت بجانبه: لو سمحتي فيه ايه في الطيارة؟..

ـ ما في شي بيخوّف مِسيو، هَيدا مطب چوي..

نظر لُملك كأنه يتأكد من صحة ما قالته! ثم نظر إلى المضيفة يسألها: أومّال صوت الفرقعة اللي حصل في الطيارة ده كان ايه؟..

ـ ما تعتلوا هَمّ ما في شي بالطيارة، هَيدا صوت الرعد، نحنا بس فِتنا بمنطقة إعصار، دِقتين وبنطلع مِنَّه..

تنفس يوسف الصعداء متمتمًا بالصلوات السهمية: يا ربي يسوع المسيح خلّصني، يا ربي يسوع المسيح نجِّني، يا ربي يسوع المسيح كُن مَعي. . .

ثم قال بصوت مرتفع: الحمد لله..

ـ أنا آسفة يا يوسف إني خضيتك، انت عارف إني اول مرة أركب طيارة..

ـ ولا يهمك انتي ماعملتيش حاجة أنا أصلًا صحيت من رجّة الطيارة.

خيّم الصمت للحظات ثم خلع معطفه واستأذنها ليذهب إلى دورة المياه، غسل وجهه ورأسه لينفض عنهما غبار فزعته، ثم نظر لنفسه في المرآة لثوان، حتى لفتت قلادته الذهبية ـ التي تدلت من فتحة قميصه ـ انتباهه، تذّكر حديثه الداخلي قبل أن يَنَم، عليه الآن لفت نظرها لكونه مسيحيًا، أعد خطة محكمة لاستدراجها للحديث عن عائلتها، ثم بالتبعية يحدثها عن عائلته، لن يحتاج إلى أكثر من ذكر اسم جده غبريال أو أمه سيلڤيا أو أخته ريموندا حتى ينجز مهمته، وإن شعر بامتعاضها أو لاحظ على وجهها علامات التفاجؤ سيستدرك الموقف بحديث شاعري مفصل عن عمق علاقته بأخته، ليثير مشاعرها مذيبًا حدة وقع المفاجأة عليها.

ـ صحيتي امتى؟..
ـ من حوالي ساعة، وانت نمت امتى؟..
ـ بعدك بساعة تقريبا، كنتي بتعملي ايه؟..
ـ كنت بقرا قرآن..

سكت للحظات ثم قال: صحيح ماقُلتيليش عملتي ايه في المطار ٥ ساعات..

ـ أبدًا، كنت بحاول أنام زي ماقُلتلك وماعرفتش فصلّيت الفجر وقعدت أقرا قرآن شوية واسمع أغاني شوية، وكلمت أهلي طمنتهم عليا أول ما وصلنا وقبل ما نتحرك..

سكت لثوان محاولًا إيجاد مدخلًا لخطته التي وضعها منذ دقائق، ثم قال: شكلك مرتبطة بأهلك أوي..

ـ اكتر مما تتخيل..
ـ ليكي اخوات يا مُلك؟..
ـ ليا مريم في ثانوية عامة ومالك في أولى ابتدائي...

سرحت للحظات ثم استطردت: بابا أستاذ دكتور في صيدلة القاهرة، وعندنا صيدلية صغيرة كده بيشرف عليها بابا وبيديرها "محمود" ابن عمي دكتور صيدلي برضه، المفروض مريم تمسكها بعد

ما تتخرج هي عاوزة تخش صيدلة عشان بابا يدرّسلها، وماما أصلًا تبقى بنت عم بابا ومتفرّغة لتربيتنا..

- ماما ومريم هما اللي كانوا معاكي في الصورة اللي سرحتي فيها دي؟..

- انهي صورة؟..

التقطت ألبوم الصور وقلبت صفحاته حتى أشار لها يوسف على الصورة المقصودة، فقالت: لأ، دي عمتي وبنتها..

- شكلك بتحبيهم اوي..
- جدًاااا..
- ده انتي بتتريقي بقى! . .

- الحقيقة أه، عمتي طول عمرها ليها مشاكل معانا، خلافاتها كتيرة مع ماما وبالتالي علاقتها ببابا متوترة، وبالتبعية مابتحبنيش أنا واخواتي وبالذات أنا..

- اشمعنى انتي بالذات..

- عشان أنا الكبيرة وكنت دايما بقف لها لما بتتكلم وحش على ماما، غير كده أنا ومروة بنتها من سن بعض فبتغير مني عشان أنا متفوقة في الدراسة وبتتريق عليا عشان دخلت كلية آداب بـ٩٦٪، ومروة مستواها مش قد كده ودخلت معهد خدمة اجتماعية، وده بيخلي

العيلة تقارن بينَّا دايمًا، خصوصا تيته مامة بابا دايمًا تقول لعمتي بنت چيهان شَاطرة وبنتك خايبة، والكلام ده بيفوّر دمها..

- معلشي هو لازم كده كل عيلة يكون فيها فرع قايم بدور استيفان روستي..

ضحكت مُلك ثم قالت: ده انت مركز معايا بقى من الأول..

- والله هو مش بالظبط، بس ماقدرتش امنع نفسي من اختلاس النظر من وقت للتاني في الألبوم، ولفت نظري سرحانك في الصورة دي فاعتقدت انهم مامتك وأختك..

صمتت للحظة ثم هزّت رأسها مبتسمة ابتسامة خبيثة وقالت: ما علينا!، وانت بقى يا استاذ يوسف ليك اخوات؟..

- ليا اخت واحدة اصغر مني بسنتين ونص...

وقبل أن يستطرد في التفاصيل التي ارتقب الوصول إليها، اهتزت الطائرة بعنف مرة جديدة، بالرغم من خروجهم من منطقة الإعصار منذ ما يقرب من نصف ساعة، فسألته مُلك: ده أكيد مطب تاني صح؟..

- اه اعتقد..

ثم اهتزت الطائرة مرة أخرى هزة أعنف صاحبها صوت انفجار خارج الطائرة، فسألها يوسف في قلق زاد من قلقها: ده نفس الصوت اللي سمعتيه المرة اللي فاتت؟..

ـ لأ!، فيه ايه يا يوسف؟..

ـ ده مش صوت رعد!.

ثم انتبهوا على صوت انفجار ثان وشاهدت مُلك من نافذتها ألسنة لهب تخرج من محرك الطائرة الأيمن، وأخذت مصابيح وصافرات الإنذار تدوي في أرجاء الطائرة، ما أثار دَربكة عظيمة أحدثها هرج ومرج بعض الركاب، وحاولت المضيفات تهدئتهم وإقناعهم بالتزام أماكنهم وربط الأحزمة، حينها أخذت الطائرة تهبط بسرعة هائلة بشكلٍ مائل إلى الأمام، ثم يحاولا الطيَّاران رفعها مرة أخرى بقوة دفع الهبوطً، في محاولة لإبقائها محلقة أطول فترة ممكنة، وظلت ترسم في الهواء تلك الموجات المستعرضة مرة تلو الأخرى، وكأنها مثبتة على قضبان حديدية ملتوية تشبه ألعاب قطارات الملاهي الأفعوانية!، حتى جاء صوت الطيار معلنًا عن خسارة محركيّ الطائرة الأيسر والأيمن، ومطالبًا الركاب بالاستعداد لهبوطٍ اضطراري فوق سطح المحيط!.

حاول الركاب التشبث بمقاعدهم ووضع أقنعة الأوكسجين ـ التي تدلّت من فوقهمـ حسب تعليمات المضيفات، ورغم ذلك لم يفهم كثير منهم مقصد الطيار بالاستعداد للهبوط فوق سطح المحيط، بل لم

يفهموا كيف الهبوط فوق سطح المحيط من الأساس!، ارتفعت أصواتهم بالدعاء والصلوات والبكاء، وأمسكت مُلك مصحفها وأخذت تقرأ آيات سورة المُلك ـالمنجّيةـ بصوت مسموع: {تَبَارَكَ الّذي بيَده **الْمُلْكُ** وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَديرٌ(١) الّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لَيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزيزُ الْغَفُورُ(٢) الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات طبَاقًا مَا تَرَى في خَلْق الرّحْمَنِ منْ تَفَاوُت فَارْجعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى منْ فُطُور(٣)...}

وأخذ يوسف يردد الصلاة الربّانية بصوت منخفض: أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير بالمسيح يسوع ربنا، لأن لك **المُلك** والقوة والمجد إلى الأبد. آمين..

ـ {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنيَ اللّهُ وَمَنْ مَعيَ أَوْ رَحمَنَا فَمَنْ يُجيرُ الْكَافرينَ منْ عَذَابَ أَليم(٢٨) قُلْ هُوَ الرّحْمَنُ آمَنّا به وَعَلَيْه تَوَكّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ في ضَلَال مُبين(٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتيكُمْ بمَاء مَعينٍ(٣٠)}. صدق الله العظيم..

انتهت من قراءتها ثم سألته في خوف: احنا بنموت يا يوسف؟!..

فنظر إليها في شيء من العجز قائلًا: ماتقلقيش، ربنا يدبّر.

استمرت الطائرة في التحليق على هذه الحالة المضطربة عدة دقائق إضافية، انتظر فيها الركاب جميعًا لقاء حتفهم الحتمي ـ حتى إن بعضهم تمنى بتعجيله ـ، ثم جاء صوت الطيار منذراً بالاستعداد للاصطدام، وطالب الركاب بارتداء سترات النجاة من دون ملئها بالهواء إلا عقب الاصطدام بسطح المحيط، ولكن أكثرهم لم ينتبهوا له، وقادتهم فطرتهم لشد أحبال السترات لتمتلئ بالهواء في الحال، وشرعت مُلك في القيام بالمثل، فصرخ فيها يوسف: لأ!!، لو نفختيها دلوقتي مش هتعرفي تخرجي من الطيارة لما تدخلها المياه..

ـ طب اعمل ايه؟..

ـ وطي راسك لحد ركبك واصبري لما تتفتح مخارج الطوارئ..

شرعت مُلك في البكاء من شدة الذعر ولكن يوسف شد على يدها ونظر إلي عينيها مباشرةً قائلًا: بتعرفي تعومي؟..

ـ اه..

ـ طب ابقي خلي بالك مني عشان أنا مابعرفش!.

وفجأة انزلقت الطائرة في الهواء لتسقط بشكل عمودي تمامًا بسرعة هائلة، تدافع معه كل ما على أرضية الطائرة إلى مقدمتها،

وأخذت تدور حول نفسها عدة دورات، قبل أن يقع الانفجار الهائل!.

***

القاهرة، ظهر الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩

خرج الدكتور سليمان من مسجد السيدة زينب بعد صلاة الجمعة قاصداً السوق لشراء لحوم وخضروات للإفطار، وللمرة الأولى ـ منذ خمسة عشر يومًا ـ لم يستشعر البهجة في ألوان الزينة المتعددة الأشكال والأنواع التي تغطي السماء من كثرتها ـ كما يفعل في كل مرة يسير فيها بشوارع الحيّ العتيق منذ بداية الشهر الكريم ـ، ولم تلفت نظره الفوانيس الضخمة المعلقة في وسط الشوارع بحبال مشدودة بين الشرفات ـ كعادتها ـ.

اشترى الطعام وعاد إلى أسرته الصامتة منذ ليلة البارحة، وكان هو أكثرهم تماسكًا رغم ما سببه غياب مُلك من فراغ موحش بداخله قبل أن يُلقِ بظلاله على جدران المنزل، فوجد مريم ومالك جالسان أمام التلفازَ يشاهدان مسلسل (سر الأرض) من دون إطلاق ضحكاتهما المعتادة على (إفّيهات) شخصية القرموطي!، أما چيهان فألهَت قلقها بأشغال البيت، بينما بدّل هو عباءته بـ(بي چاما) وجلس بالشرفة ـ كعادته في أيام الجُمَع ـ يتصفح الجرائد، كان مشتت الذهن إلى

حد كبير، يقرأ الكلمات التي يمر فوقها بصره بشكل أوتوماتيكي من دون التركيز في فحواها، حتى وقع بصره على مانشيت جذب انتباهه وأخرجه من شروده فجأة! .

....

جلس يحيى وزوجته بشرفة منزلهما المطلة على ميدان التحرير يحتسيان القهوة، ثم نظرت سيلڤيا إلى المُجمّع نظرة طويلة غارقة في شرودها، فبادرها يحيى: رُحتي فين يا أم يوسف؟..

- مش عارفة يا يحيى قلبي مقبوض أوي من سفرية يوسف دي..
- ماتقلقيش أنا اديته الوصايا العشر..
- ماقصدش كده!، بس يوسف أول مرة يسافر المسافة الطويلة دي كلها..
- يعني هيجراله ايه، ابنك زي القرد..
- مش متخيلة اننا هنعيّد من غيره، دايمًا هو اللي بيجيب لنا الشجرة وبيزيّنها مع ريموندا..
- سيبي الولد يشوف مستقبله من غير ضغوط، ابنك هيبقى حاجة كبيرة يا سيلڤيا..

ـ ماهو دلعك فيه ده اللي خلاه يسيب الهندسة ويدخل إعلام..

ـ مش لازم عشان أنا وانتي مهندسين يطلع ابننا مهندس، ما عندك ريموندا اهي ما دخلتيهاش هندسة ليه؟..

ـ ما هي من صغرها طالعة دبلوماسية زيك وتحب تجادل كتير! . .

قطع حديثهما صوت باب المنزل يُفتح، ودخلت منه ريموندا عائدة من الكنيسة بعد أن انهت خدمتها، فقال يحيى: اهي الدبلوماسية المجادلة رجعت اهي..

ريموندا: قفشتكم، بتعملوا ايه هنا لوحدكم يا أشقيا؟..

يحـــيى: يعني هنعمل ايه في البلكونة يا بكّاشة..

سيلڤيا: اتفضل آدي آخرة دلعك..

ريموندا: شُفت يا بابا!، اهي من امبارح مش طايقالي كلمة من ساعة ما حبيب القلب سافر، فكّيها بقى يا سيڤا..

سيلڤيا: طب يلا خشي غيري هدومك وحضري الغدا ليكي انتي وبابا، أنا هتغدا في الموقع النهارده..

حملت ريموندا صينية القهوة ذاهبة بها إلى المطبخ، فقال يحيى لزوجته بصوت منخفض: قافشة ع البنت ليه كده؟..

ـ مش شايف شغل الأونطة اللي هي فيه؟..

ـ طب ما ابنك كمان من صغره أونطجي، ولعلمك بقى ماكانش هيفلح في الهندسة، صلّيله ربنا يوفقه..

ـ هتوصيني على ابني يا يحيى! ، صلّيله بس يرجعلنا بالسلامة..

ـ ما انتي بتوصيني على ابني اهو! ، حاضر يا مستبدّة هصلّيله..

ـ والعدرا انت فايق! ، أنا قايمة نازلة الموقع الساعة بقت تلاتة.

وقبل أن تهمّ سيلڤيا بالنهوض من كرسيها، سمعا صوت ارتطام الصينية والفناجيل بأرضية الصالة!.

....

"سيدني تستعد لأولمبياد ٢٠٠٠ بـ٦,٦ مليار دولار" ، جحظت عينا سليمان عند قراءة المانشيت وثَبُتَ بصره على كلمة سيدني، إنها إشارة لُملك، لا بد أنها تفكر فيه الآن؛ فقد كان مؤمنًا بالإشارات، حتى آمنت بها مُلك وأحبتها، خصوصًا وأنه أخبرها في طفولتها بأنه كان ينتظر مجيئها الحياة منذ كان في الثانية عشر من عمره بسبب علامة ما. . وهو السن الذي بدأ فيه ممارسة فن النحت؛ فقد أسَرَّ لُملك بأنه كان يعاني الخجل من الجنس الآخر وبالتالي لم تكن له علاقات عاطفية، معترفًا بأن ذلك كان سبب زواجه من ابنة عمه، وعليه كان

أول ما نحته هو مجسّمًا مصغّرًا له ـ أو هكذا ظَنَّ أنه يشبهه ـ ثم اقتطع جزءًا من ضلعه وشكّل حوّاء، وأخبر مُلك ضاحكًا بأنه جلس لساعات ينفخ في حَوّائه، وحين لم يستحل التمثال بشرًا طرحه أرضًا وجلس يبكي بجواره، ثم نام ورأى في منَامه شخصًا مهيبًا ـيظنه آدمـ يقتطع جزءًا من ظهر تمثاله ويضعه في يده قائلًا: مُلكُكَ من صُلبِكَ سيأتي.. لا من ضِلعكَ يا سُلَيمان.

فاستيقظ مؤمنًا بأن أول ذريته سيكون "مُلك"، وقد كان. كما أحبت مُلك التاريخ ـ الملئ أيضًا بالإشارات والعلامات ـ من خلال والدها، فهو شخص مرهف الحسّ كان يهوى فنون النحت والرسم والتصوير وقراءة الكتب التاريخية في صغره، لكن والده ـككثير من الآباءـ أراد التفاخر بابنه الطبيب، بينما سليمان كان يكره الاختلاط بالدماء والإصابات والعمليات فأقنع والده بالالتحاق بكلية الصيدلة بدلًا من الطب، وهكذا ترك الفنون شيئًا فشيء لكنه لم يترك الانغماس في قراءة التاريخ والحضارات والأديان القديمة التي كادت إشاراتها تفقده عقله ـوربما إيمانهـ في مرحلة المراهقة، ثم أعادته له مع مزيد من الوعي ـوالإيمانـ في شبابه.

انتهى سليمان من تصفح الجرائد ثم دخل الصالة وجلس ـ في شرودـ بجوار مالك الذي كان يتابع برنامج (عالم الحيوان) في تركيز طفولي شديد، وعلى وجه الصغير علامات الاستعجاب حيال ذلك الحيوان العجيب الذي يقف على ذيله أحيانًا ويضع صغاره في كيس من

الجلد أسفل بطنه، وفجأة انتبه سليمان على صوت "محمود سلطان" راوي البرنامج الشهير يقول: يعيش حيوان الكنغر في الغابات المطيرة المدارية بجزيرة غينيا الجديدة وشمال شرق أستراليا.

انقبض قلب سليمان حين سمع كلمة أستراليا، هذه إشارة ثانية في أقل من عشر دقائق، نظر إلى ساعة الحائط فوجدها تشير إلى الثالثة!، وقال لنفسه: لسة سبع ساعات على ما توصل مُلك مطار سيدني، يا ترى عاملة ايه دلوقتي؟، يا رب سَلِّم.

وفي اللحظة قُطِعَ بث البرنامج وظهرت إشارة الفقرة الإخبارية (أهم الأنباء)، والتي جاءت بخبر وحيد استمع إليه سليمان وهو يتمتم: اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه يا كريم..

- أعلنت السلطاتُ الإماراتية عن فقدان الاتصال بطائرة الخطوط الإماراتية من طراز (آير باص A330) رحلة رقم ألفَ وثمانيةَ وستين، وذلكَ بَعدَ إقلاعها من مطار دبي الدَوليّ بستّ ساعات ونصف الساعة وتحليقها فَوقَ المحيط الهنديّ بالقُربِ من أرخَبيلِ جُزُر المَلايُو. كما أَوضَحَت السلطَاتُ الإماراتية أنَّه تَمَّ فَقدَ الاتصَال بالطائرة واختفاؤها من شاشات المراقبة الجوية بشكل مفاجئ، في الواحدة وأربعة وعشرين دقيقةَ ظهراً بتوقيت القاهرة. يذكرَ أن الرحلة رقمَ ألفٍ وثمانية وستين أقلَعَت من مطارِ القاهرة

الدَولي أمس الخميس في تمام العاشرة مساءً بتوقيت القاهرة متجهةً إلى دبي لقضاء ترانزيت، ومن ثَمَّ استؤنفت في تمام السابعة صباحًا بتوقيت القاهرة إلى وجهَتها المَقصودة مطار كينجسفورد سميث بسيدني، وعلى مَتنها مائتان وثلاثة وعشرون راكبًا من بينهم واحد وسبعون مصريًا وتسعة وأربعون إماراتيًا وسبعة وثلاثون أستراليًا وستة وستون من جنسيات مختلفة، إضافةً إلى ستة من أفراد طاقَمها.

هروَلَت چيهان إلى الصالة غير مصدقة أذنيها، وهي تقول لزوجها: فيه ايه؟، فيه ايه يا سليمان؟، هي دي طيارة مُلك؟، رد عليا يا سليمان بنتي جرالها ايه؟!..

- ما جرالهاش حاجة، إن شاء الله ماجرالهاش حاجة..
- دي مش طيارتها، مُلك كويسة وهتكلمنا أول ما توصل يا سليمان صح؟..

نظر إليها في ذعر من حالتها دون أن ينبس ببنت شفة، لم يعرف ماذا يقول لها، لم تستطع ذاكرته استعادة رقم رحلة مُلك، ولكن التفاصيل الأخرى المذكورة بالخبر عن موعد إقلاع الطائرة والترانزيت والوجهة كلها مطابقة. أخذ سليمان وزوجته وابنته يتمتمون بالدعاء وعيونهم تحاول مغالبة الدموع، وظل مالك ـ كعادته ـ يرقبهم في دهشة ممتزجة بشعور طفولي بالخوف على أخته الحنون، حتى قطعت

هدوءهم إشارة (أهم الأنباء) لمرة ثانية، فتسمّر أربعتهم أمام المذيع الذي تلى بيانًا بأسماء الواحد وسبعين مصريًا الموجودين على متن الطائرة المفقودة، وبعد مرور ما يقرب من دقيقة عدّ خلالها المذيع ما يقرب من ثلاثين اسمًا ـحتى شارفت قواهم أن تخورـ جاء صوته يقول: مصطفى صالح المصري، رامي محمد الحسيني، ديڤيد سمير عيّاد، يوسُف يحيى غبريال، مُلك سُلَيمان عبد العزيز...

فسقطت چيهان على الأرض وهي تصرخ: بنتي!!، بنتي يا سليمان..

ونزل وراءها سليمان على ركبتيه ليسندها وهو يردد صارخًا: يا رب!!.

....

بعد ساعات قليلة اكتظ مطار القاهرة بأهل مُلك ويوسف وسائر ضحايا الطائرة المنكوبة ـ في مشهد لا يُحسدون عليهـ لمتابعة أخبار ذويهم عن قرب فور استقبال المطار أي معلومات عنهم، بعضُهم انحشرَ بالمقاعد وأغلبُهم افترش الأرض وكلاهما ألقَيَا على المكان بظِلال أنفاسهم القَلِقة وعَبَّآهُ برائحة أرواحِهم المُتعَبة!.

تشارك أهالي يوسف وديڤيد ورامي ومصطفى وبعض زملائهم بالوكالة القلق والمواساة، وكان الجميع في حالة انهيار ونحيب، إلا ريموندا التي تجاوزت تلك المرحلة بالصمت، فمنذ فاقت من إغماءتها وهي فاقدة للنطق، لا تنظر إلا أمامها في شرود تام بنظرة مثبتة وكأنها تبصر شيئًا في الأفق لا يراه غيرُها!.

ظلت الأسر على تلك الحال ساعات طويلة، ولكن لم يتم التعرف على مكان الطائرة ولم تلتقط الرادارات أيّ إشارة منها منذ اختفائها، وبحلول منتصف الليل انسحبت الأسر الواحدة تلو الأخرى من المطار إلى منازلها، مفتقرين للنوم على أمل موافاة التلفاز بأيّ جديد عن الطائرة الخفيّة!.

* * *

(المحيط الهندي، مساء الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩)

في قُمرة القيادة حاول الطيار ومساعده السيطرة على الطائرة ـ فاقدة المحرك الأيسر ـ قدر الإمكان، وأرسلا نداءات استغاثة لأبراج المراقبة في المطارات القريبة من موقعهم في إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة، وجاءتهم استجابة وحيدة تحثهم على الهبوط في المطار الأقرب لهم وهو مطار السلطان إسكندر مودا بإندونيسيا، ولكن لم يكن هناك مزيداً من الوقت للطيران إلى هناك بعد خسارة المحرك الأيمن

أيضًا، وبعدها تعطّل نظام الإشارة بالطائرة وفقدت أجهزة الرادار أثرها، وأخذت الطائرة ـالمحلقة على ارتفاع ٣٥٠٠٠ قدمـ تهبط بسرعة هائلة بشكلٍ مائل إلى الأمام، ثم يحاولا الطيَّاران رفعها مرة أخرى بقوة دفع الهبوط، في محاولة لإبقائها محلقة أطول فترة ممكنة، تمهيدًا للهبوط القسري ليلًا فوق سطح المحيط المعتم، واستمرت الطائرة في التحليق على هذه الحالة المضطربة عدة دقائق إضافية، وفجأة انزلقت في الهواء لتسقط بشكلٍ عمودي تمامًا بسرعة هائلة، وأخذت تدور حول نفسها عدة دوراتٍ، قبل أن تسقط رأسيًا على جزيرة صغيرة جدًا لم يرَها الطيار ومساعده في هذه الظلمة الحالكة، فوقع انفجار هائل وتداخل جسم الطائرة متشرذمًا إلى أشلاء متناثرة، ولكن انفصل عنه الذيل بمجرد ملامسة مقدمة الطائرة سطح الجزيرة إثر حركة الدوران، وألقيَ على مسافة منه!.

....

* * *

أرخبيل الملايو، صباح السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٩٩

بعد عشر ساعات من السقوط استيقظ يوسف ليجد نفسه شبه مردوم تحت بقايا أنقاض ذيل الطائرة المهشم، ومثبتًا في مقعده بحزام الأمان، وعلى يمينه تقبع مُلك مثبتة بحزامها أيضًا وقد غطى حجابُها

وجهَها وكأنه يخنقها وعلى رأسها آثار دماء، فهَمّ أن يمسك بها ولكنه صرخ فجأة عندما شعر بألم فظيع في ذراعه اليسرى، فنظر لها ليجد قطعة مدببة من الصاج غامدة بمنتصفها، وطرف الصاج الآخر مثبت بجسم الطائرة، فحاول أن يخلص ذراعه منها ولكنه كان يتألم بشدة، نظر إلى مُلك مرة أخرى وأرعبه ثباتها، فحاول أن يهزّها بشدة بذراعه السليمة ولكن لم تصدر عنها أي إشارة، نظر يساره فوجد بالصف المقابل من المقاعد بقايا ثلاث جثث طُحنوا بين سقف الطائرة ومقاعدهم على إثر سقوط الذيل على جانبه الأيسر، ارتعد مرة أخرى خوفًا على مُلك، وأخذ ينادي عليها بصوت باك ويهزّها بيمناه في عنف وهو يحاول سحب يسراه من الصاج صارخًا ـ في آن واحد ـ، حتى همهمت مُلك بتأوهات خفيفة انفرجت لها أساريرهً، كانت تعاني آثار صدمة بجبينها نزفت منها حتى تجلطت الدماء على وجهها، وما إن فتحت عينيها حتى شعرت بصداع فظيع وكأن يدين حديديتين تطبقان على رأسها، رؤيتها ليوسف وسماعها لصوته كانا ضعيفين لمدة ثوان حتى انتبهت لمنظر الدماء التي تغطي ذراعه، فنادت عليه في فزع وفكّت حزامها وحزامه وشرعت في تخليصه من هذا الصاج الأحمق الذي ما يلبث أن تلمسه حتى ينشر في لحم يوسف وعظامه، فكّت مُلك ما تبقى من إيشاربها الأبيض وكوّمته بين أسنان يوسف، وأخذت تسحب ذراعه رويداً رويدا من هذا الشيء البالغ طوله نحو ثلاثين سنتيمترًا، وأخذ هو يصرخ صرخات مكتومة كادت وأسنانه أن

تمزق الإيشارب، حتى تمكنت من انتزاع ذراعه ـبعد أن فقد ثلث دمائهـ وأسندته حتى خرجا من ذيل الطائرة المهشم، إلى المشهد الذي ضرب أعينهما بغتة!.

وجدا نفسيهما محاطَين بنخيل جوز الهند، وعلى مسافة خمسة وعشرين مترًا تقريبًا أمامهما كانت أمواج المحيط الهائج تضرب الشاطئ وتزحف على معظمه، وفي السماء كانت تحلق أسراب (نورس قرصان البحر) المهاجرة، ذات المنقار الأصفر والجسم الأبيض والجناحين الرماديين، والتي تنزل أحيانا لتلتقط السردين والأسماك الصغيرة من المياه قرب الشاطئ ثم ترتفع مرة أخرى، أو تسير بعضها على رمال الجزيرة البيضاء بحثًا عن السلطعونات والحلزونات الرخوة، وعلى مسافة نحو ثلاثين مترًا يمينًا كان حطام الطائرة لم يفرغ من دخان احتراقه بعد، أما على مسافة نحو خمسين مترًا يسارًا كان يقبع تَلٌّ متوسط الارتفاع ممتد على شاطئ الجزيرة حتى الخلف في شكل هلالي.

أسندته حتى المحيط لغسل الجرح، وكانت المياه المالحة تلهب جرحه، خلعت عنه سترة النجاة وتابعت بخلع قميصه الأسود بحذر لتضمد به الجرح، ثم لفّت الإيشارب حول ذراعه برفق، حينها لاحظ شعرها الأصفر الناعم المنسدل على كتفيها، فانتبهت هي لنظرته

ولملمت شعرها في خجل، ثم خلعت سترتها وفردة حذائها اليمنى المتبقية ـ حيث إنها خسرت اليسرى في الحادث ـ، وشرعت في تنظيف وجهها من الدم المتجلط، ثم جلسا ليستريحا قليلًا وحينها سألته: عامل ايه دلوقتي؟..

ـ الحمد لله أحسن..

ـ هو احنا وقعنا فين؟..

ـ مش عارف، بس شكلنا كده وقعنا في جزيرة من جزر إندونيسيا أو ماليزيا..

على خلفية مقولته السابقة قدّم ساعته مجدداً أربع ساعات إضافية، ثم انتبه وهو يرفع رأسه لنظرتها السريعة على قلادته الذهبية، فقال في شيء من الخجل وهو يقلّب دلايتها بين أصابعه: كنت هلمّح لك بس ماجتش فرصة..

ابتسمت ابتسامة متعبة ثم قالت: تلمح لي بإيه؟ ما أنا عارفة أصلًا..

ـ عارفة ايه؟!، قصدي عرفتي منين؟..

ـ عادي يعني خدت بالي من طريقة كلامك.

لم يتعجب هذه المرة من ذكائها قدر تعجبه من تهويله للأمر!. لفت نظرهما منظر الطائرة المحترقة فسارا باتجاهها، وأخذا يبحثان في

محيطها عن أي مظهر من مظاهر الحياة، ولكن أكبر جزء بين أشلائها كان بحجم المحركات!، وجميعها محترقة بالكامل، حتى بقايا الجثث وحقائب السفر كانت متفحمة، عرفا حينها أن بقايا الطائرة لن تفيدهم بأي شيء، وأنهما الناجيَّان الوحيدان، وحينها انهار يوسف ودخل في نوبة بكاء هيستيرية حين أيقن أن أصدقاءه قد تفحموا بالطائرة، خصوصًا ديڤيد الذي كان بمنزلة أخيه الذي لم تلده سيلڤيا!.

....

بعد ساعات قليلة بدأت الشمس في السطوع وأخذت آشعتها تشتد لتلهب جلديهما، جلسا أسفل نخلة ليستريحا وشعرا حينها بالجوع والعطش، وانتبها لتحد قاسٍ قد يواجهانه حال طال بقاؤهما على هذه الجزيرة، ماذا سيأكلانِ.. وماذا سيشربان.. وأين سيقضيان ليلهما.. وكيف؟!،

- بقيت أحسن؟..
- لتكن مشيئته، مش لازم ازعل، هما أكيد في مكان احسن بكتير دلوقتي، الحمد لله..
- شكلك تعبان اوي، ماجوعتش؟..
- عطشان جدا، وخَرمان..
- انت بتدخن؟..

رد وهو يتحسس جيب بنطاله: اه، الحمد لله إن علبة سجايري وولاعتي في جيبي..

ثم تابع وهو يتفقّد العلبة: بس للأسف مافيهاش غير ١٠ سجاير بس، وانتي ماجوعتيش؟..

ـ أنا كمان عطشانة وجعانة.

كانت الأرض حولهم مفروشة ببعض حبات جوز الهند العَطنة، فنظر فوقه للحبات الطازجة، ثم أشعل سيجارة ووضع العَلبة والقداحة بجواره وأخذ يفكر كيف له أن يتسلق هذا النخيل الأملس بذراع واحدة، فبالتأكيد لن تستطيع مُلك تسلقه، ثم خطر في باله قذفها بالحجارة، فنهضا وحاولا معًا جمع الحجارة المناسبة، ثم جلس على مقربة يشاهدها وهي تحاول بطريقة طفولية إصابة حبات جوز الهند، فأخذ يشرح لها نظريًا كيف تركض لبضع خطوات ثم تقذف بالحجر بقوة ليصل لأعلى نقطة ممكنة، وجلس يشاهدها وهو يضحك ضحكات مكتومة، ساخراً من منظرها وهي تحاول الركض لخطوتين ثم تقفز في الهواء لتقذف بالحجر بكامل قوتها فيصل بالكاد لمنتصف النخلة، فاغتاظت هي من ضحكاته الساخرة،

ـ انت مبسوط وعمال تضحك؟!..

ـ مش فكرة مبسوط بس ماحدش يجري بفستان أبدًا..

رفعت حاجبها في استغراب لإشارته الجريئة! ولكنها سرعان ما تفهمت أنه محق، وقالت: يعني اعمل ايه دلوقتي؟..

مطّ شفته السفلى في إشارة تعني (لا أعلم)، فحدّقت به للحظات، ثم قالت: لف وشك..

صمت للحظة ليدرك مقصدها ثم استدار جهة المحيط، واستدارت هي جهة النخيل ورفعت فستانها قليلًا، ثم لفّت رأسها تجاه يوسف وهي تعلم أنها لن تستطيع رفع الفستان أكثر من ذلك، ولكنها أيضًا متيقنة أن هذا القدر لن يساعدها على الركض،

- قوم من هنا..
- هتعملي ايه؟..
- مالكش دعوة قوم أنا هتصرف..
- اقوم اروح فين طيب؟..
- اتصرف يا يوسف..
- طيب حاضر حاضر.

سار يوسف باتجاه التل، وتابعته مُلك حتى غاب عن نظرها واطمأنت أنه لم يعد يراها، ثم رفعت فستانها حتى خصرها كاشفة عن ساقيها الأبيضَين، وفخذيها الذين يغطي نصفهما بالكاد (شورت) أسود قصير، ثم خلعت البوليرو الصوف الذي كانت تبقي على ارتدائه مضطرة - في هذا الطقس الحار بالجزيرة- ليغطي ذراعيها

العاريتين، ولفته حول خصرها لتحزيم الفستان وتحسبًا لعودة يوسف المفاجئة ـإذا عادـ.

شرعت في تنفيذ مهمتها كما شرح لها يوسف، وبالرغم من ارتفاع قذفتها بعد تمكنها من الركض لكنها فشلت كثيرًا في إصابة حبات جوز الهند، فهي قصيرة جدًا وجسدها نحيل بعض الشيء ـ وإن كان ممشوقًاـ وتميل للرقة بدرجة يصعب معها قذف حجر على هدف يرتفع عن سطح الأرض نحو ثلاثة عشر مترًا!.

ظلت على تلك الحال ما يقرب من عشر دقائق، وكلما نفدت الحجارة تجمعها من جديد وتعود لمحاولاتها التي باءت جميعها بالفشل، حتى أحبطت.

جلست على الرمال قليلًا لتستريح، واشتد عليها الجوع والعطش، نظرت يمينًا فلم تجد أثرًا ليوسف، ثم نظرت يسارًا فوجدت حطام الطائرة الميتة، وتذكرت حال ذراع يوسف التي من المُحال معها تجربة ما هي مكلفة به الآن، فشعرت بالمسئولية حيال مسألة حياة أو موت، فنهضت من جلستها ونظرت للنخلة نظرة تحدٍ طويلة وكأنهما في حلبة مصارعة، ثم سارت باتجاه الطائرة!.

....

سار يوسف باتجاه التل منتويًا السير حول الجزيرة لاستكشافها، كان التل صخره بركاني رصاصي اللون، وتنمو عليه أنواع مختلفة من الأعشاب والطحالب التي تبدو غير صالحة للأكل، وسطح جانبه متدرجًا ما سهّل على يوسف عملية صعوده، وحين وقف على قمة التل وجده يحد شاطئ الجزيرة البيضاوية الصغيرة من غربها حتى جنوبها، وجالَ ببصره باحثًا عن أي يابسة قريبة تتبع أي من جزر الأرخبيل، ولكن المحيط كان محيطًا بجهات الجزيرة كافة ممتدًا حتى الأفق، ما زاد من ارتعاده!.

نزل يوسف التل وسار بمحاذاة سفحه الذي عثر به على كهف معتم لم يجازف بالدخول إليه، كما لاحظ وجود بعض التجويفات المغارية على جانبه، وبالقرب من التل كان النخيل أكثر كثافة منه قرب الشاطئ، وعلى عكس توقعه لم يعثر على أي مظهر من مظاهر الحياة، فالجزيرة خالية من السكان والزوار بل والحيوانات!، ولم يعثر على أي دليل مادي أو أي إشارة لوطأة بشرية على هذا المكان من قبل، حينها فقط عرف أن الجزيرة مهجورة بل مجهولة منذ بدء الخليقة، وحينها فقط مات قلبه ارتعادًا!.

....

عادت مُلك حاملة مسند مقعد مكسور، ووضعته في نقطة الرماية، وابتعدت بضعة أمتار للخلف وهي تضغط بيمناها على الحجر في تحد، ثم ركضت بسرعة وداست على المسند لتقفز قفزة أعلى ورمت بالحجَر بكل ما أوتيت من قوة، فارتفع في مستوى حبات جوز الهند ولكنه مر بجانبها من دون أن يُصبها، ما أفرح مُلك وأغضبها في آن واحد، فعاودت التجربة مرة أخرىَ مع مزيد من التركيز وأصابت إحًدى الحبات لكنها لم تسقط، تحمست وابتعدت مسافة أكبر حتى لامست الأمواج الزاحفة قدميها، وركضت بسرعة هائلة ثم قفزت قفزتها المزدوجة من فوق المسند ورمت بالحجر فأوقع الجوزة، لم تصدق مُلك أنها فعلتها أخيرًا، وأمسكت بحبة جوز الهند وراحت تهلل وتنادي يوسف من ناحية التل شرقًا، وكان هو قد وصل لتوه قرب حطام الطائرة غربًا، وما إن سمع صوتها حتى أجاب وأسرع ناحيتها، ولم تكن تنتبه هي لهيئتها حتى رأته، فأسرعت بفك البوليرو من حول خصرها، وارتدته بعد أن أسدلت فستانها في خجل، حتى وصل إليها،

- يا بنت الإيه، كنت متأكد إنك هتقدري..
- أنا طلع عيني خصوصا إن نضارتي اتكسرت في الحادثة وعيني مزغللة شوية، بس مابستسلمش..
- بس قدامك بقى تحدي تاني وهو كسرها، جوز الهند وهي خضرا كده بتبقى ناشفة أوي..

ـ لأ حرام بقى أنا تعبت والله..

ـ كان نفسي اعملها بدالك، بس للأسف أنا اشول..

ابتسمت قائلة: ولا يهمك أنا بهزر، إن شاء الله تخف قريب..

ـ تسلمي يا رب..

ـ صحيح انت ايه اللي جابك من ناحية الطيارة؟!..

ـ أنا لفّيت حوالين الجزيرة، مافيش حاجة ورا الجبل منه للبحر على طول، تقريبا مساحتها كلها ماتعديش فدان، فدان وقيراط بالكتير..

ـ مش فاهمة، دي يعني قد ايه؟..

ـ صغيرة جدًا، هبقى أوريهالك من فوق الجبل..

ـ طب وأيه الأخبار؟!، لقيت ايه تاني؟..

انكمش وجهه للحظة ثم قال بضحكة متهرِّبة: طب مش نكسر جوز الهند الأول، أنا هموت من العطش.

فَهِمت مُلك أنه يخفي شيئًا عنها، ولكنها لم تضغط عليه، ثم أمسكت بالجوزة وأخذت تضرب بها جذع النخلة عدة ضربات دون جدوى، ثم خطر ببالها خاطر؛ فأمسكت بفردة حذائها وضربت الجوزة بكعبه ـ ذي السبعة سنتيمترات ـ عدة ضربات حتى اخترقها بعد محاولاتَ مستميتة، وناولتها له ليشرب، ولكنه طلب منها أن

تشرب قبله، فابتسمت قائلة: لأ اشرب انت أنا مش هشرب دلوقتي، أنا صايمة.

ارتبك يوسف قليلًا من غرابة الموقف، ولم يعرف إن طلب منها أن تفطر لما هما عليه من حال هل ستتقبل نصيحته بصدر رحب أم ستعدّه تدخلًا فيما لا يعنيه، فابتسم مهوّنًا الموقف وشرب ما يرطب ريقه فقط وترك لها الباقي حتى مغيب الشمس.

جلسا أسفل نخلتين متقاربتين، وحينها لم يجد يوسف بُدًا من وصف ما رآه بالجزيرة لُملك، ودفعتهم غرابة الموقف وخطورته للصمت أحيانًا، وللحديث في ترّاهات لتبديد الوقت والخوف أحيانًا أطول، حتى بدأت الشمس في الهبوط، وكان مشهد غروبها مهيبًا وهي تغرق في المحيط وكأنها ستستقر وتغفو بقاعه، وأخذت مُلك تشاهد الغروب في إعجاب حتى ذاب لونه البرتقالي في كُحل السماء، تمامًا كما شاهدته من نافذة الطائرة في الليلة الماضية، وحينها فطنت للإفطار وتناولت الجوزة لتشرب، فوجدت يوسف نائمًا مستندًا على نخلته، وأصيبت بخوف وارتياب شديدين، لم تعرف ماذا ستفعل وحدها في تلك الظلمة، وكيف ستنام مع رجل غريب في بقعة ليست على الخريطة!، حاولت إيقاظه ولكنه لم يستجب من شدة الإرهاق، عادت لتستند على نخلتها محاولة السيطرة على أنفاسها المتصاعدة، شربت ثم ضمت البوليرو على صدرها، وحينها أحست بشيء في جيبه، فتذكرت أنه مصحفها الصغير الذي دسته في جيب البوليرو بعد

أن قرأت سورة المُلك بالطائرة، وفرحت لصحبته على تلك الجزيرة واستشعرت بعض الأمان، فكرت في الصلاة ولكنها لا تعرف لها قِبلة ولا تمتلك حجابًا ولا جَوربًا، فأغمضت عينيها داعية الله أن يسامحَها على تقصيرها غير المتعمد، وبدأت تتلو بعض سور جزء عَمَّ علّها تهدأ وتنام، ولكن خوفها ووحدتها كانا متملكَين منها، فكانت تنادي يوسف من حين لآخر ولكن دون استجابة منه، فظلت مستيقظة في مكانها، تنصت لأناشيد النوارس واصطفاق الأمواج المتلاطمة، وهي تحدّق في قُبَّة السماء التي افترشها عدد لا نهائي من النجوم من الأفق وحتى فوق رأسها، وكأنها جالسة داخل بلّورة زجاجية، حتى أخذت النجوم تبهت وبدأت السماء في التفتّح.

....

* * *

الأرخبيل، صباح الأحد ٢٦ ديسمبر ١٩٩٩

بدأت خيوط الشمس الخفيفة في التسلل معلنة عن شروقها من خلف التل، ونادت مُلك على يوسف من جديد ولكنه لم يستجب، فتعجبت لنومه العميق منذ المغرب وحتى الشروق وشرعت في هزّه فوجدته في بوادر حُمَّى، يتصبب العرق على وجهه وصدره وكأنه خرج لتوه من حمّام ساخن، بلّلت قميصه لتصنع له كِمَادات، ولكن

عرقه كان يتجدد بسرعة وكأن عيون مياه جوفية تتفجّر بجلده، حتى إن فالنَّته الداخلية البيضاء غرقت في عرقه، فطنت حينها لاحتياجه للسَوائل، وتذكرت حديثه عن قرب النخيل من سفح التل جنوبيّ الجزيرة، ما يسمح لها بإصابة جوز الهند بالحجارة بسهولة من فوق التل، ولكنها خافت بعض الشيء الذهاب وحدها إلى هناك، ولكن سرعان ما استجمعت قواها، مددت يوسف على الرمال أسفل النخلة وكوّمت قميصه تحت رأسه، وسارت في اتجاه التل وجمعت عدد من الحجارة، ثم خلعت البوليرو ـ بعد أن وضعت المصحف فوق صخرة بسفح التلـ ولفت الحجارة بداخله وربطته بذراعيه، وحينها لم تجد ما تحزّم به فستانها لتتمكن من صعود الجبل، فاضطرت لخلعه كاشفة عن شورتها الأسود وحمالة صدرها الحمراء، ثم وضعت الفستان أسفل المصحف، وبدأت في الصعود.

كان منظر الأمواج وهي تضرب جانب التل يخيفها، أحست وكأنها تنحته من شدتها، لكن حاولت التركيز في طريقها على سطح التل حتى الوصول إلى النخيل القريب منه في أقصى جنوب الجزيرة محاولةً الانتباه لقدميها العاريتين، وحين وصلت استجمعت تركيزها لإصابة أكبر عدد من حبات جوز الهند، ثم عادت أدراجها، ارتدت البوليرو فوق حمالة الصدر وأرجعت المصحف لجيبه، وعقدت طرف الفستان من ناحية الرقبة لتستخدمه كجوال لجمع حبات جوز الهند بداخله، ثم سارت في حذر بمحازاة سفحَ التل لوجهتها المقصودة مكان

سقوط الحبات، وفي الطريق لاحظت الكهف والمغارات التي حكى عنها يوسف، ولكنها تجاهلتها لعدم تحليها بالشجاعة الكافية للاستكشاف، وواصلت السير حتى آخر الغابة حاظية ببعض الجروح الطفيفة بباطن قدميها على إثر المرور على صخور التل غير المستوية، ثم جمعت الحبات الإحدى عشرة داخل الفستان وعادت ليوسف.

بالرغم من تيقّنها من أنه محموم لكنها حاذرت بفطرتها أن يكون قد أفاق ويراها على هذه الهيئة، ولكن ما إن تبيّنته ممدداً على الرمال كما تركته حتى تقدمت وأفرغت الفستان من جوز الهند بجوار النخلة، ثم خلعت البوليرو وارتدت الفستان من دونه.

كان عرقه غزير، وبدا وكأنه يتمتم باسم أحد ما، حاولت تبيّنه ولكنها لم تسمع سوى همهمات مبتورة تقول "تينا"، بللت قميصه ومسحت عن وجهه وصدره العرق، وسارعت بثقب جوزتين وأسقته ماءهما، ثم أطالت النظر إلى الإيشارب الملفوف حول ذراعه المثقوبة في خوف، ولكنها استجمعت قواها ومدت يديها المرتعشتين وفكت الإيشارب لتجدد تضميد الجرح الذي تسبب في حمّته، فصعقت حين رأت الجرح متورمًا وقد تجمّع به الصديد، حاولت السيطرة على أعصابها وأمسكت بالجوزتين الفارغتين وملأتهما بالماء المالح، وأخذت تغسل به الجرح في حذر ـ وهي تراقب تشنجات وجهه

الخفيفةـ حتى طهرته، ولكنها كانت تعلم أن الصديد سيعود للجرح من جديد خلال ساعات، فأقدمت على فعلة لم تعرف مدى فائدتها، ولكنها شعرت بأنها إن لم تُفده فلن تضره، فقد ثقبت جوزة أخرى وأفرغت ماءها كله على الجرحَ، ثم ربطته بالإيشارب بعد أن غسلته، وجددت له صنع الكمَادات، ملاحظة بعد دقائق شيئًا من التحسن في حالته، حيث انخفضتَ درجة حرارته قليلًا وبدأت همهماته تخف شيئًا فشيء حتى هدأ ونام.

تأملت وجهه خفيف السُمرة، ولحيته المجدّرة، وشعره المموّج البنّي الداكن، لم يكن وسيمًا ولكنها أحست بشيء مريح في وجهه، ربما ابتسامته الواسعة ونظرته الجريئة الواثقة كانا سر هذه الجاذبية الفريدة، أطالت النظر إلى صورة العذراء مَريَم المتدلية على صدره، والتي ذكّرتها بأختها مريم، وسائر أفراد أسرتها، لم تستطع مغالبة دموعها، من البداية لم تكن مطمئنة لتلك السفرية، كيف انتهت بها من نقطة تحول في مستقبلها إلى سُبات لا تعرف لكم من الوقت سيلبث، وكيف انتهى بها الحال من منزل أبيها بين أفراد أسرتها إلى جزيرة مهجورة لم يمسسها بشر مع رجل غريب محموم لم تعرف حتى متى سيفوق من غيبوبته!، شعرت بالوحدة والخوف والحزن وكأنها في بطن حوت لن يتورَّع عن هضمها!، بكت بشدة وهي تدعو الله أن يخرجهما مَن تلك المحنة، ثم أخرجت مصحفها وأخذت تقرأ فيه بصوت متهدّج، حتى خَفَتَ صوتها وغالبها النعاس.

....

استيقظت مُلك بعد ساعات لم تعرف عددها، ولكن كان واضحًا على الليل أنه أسدل ستاره الأسود المرصّع بالنجوم على بلّورة السماء منذ فترة وجيزة، تفقّدت يوسف فوجدته هادئًا وقد رطبت نسمات الليل بشرته فلم يعد يتعرق بغزارة، وثقبت جوزتين أسقت يوسف إحداهما وشربت الأخرى بعدما رددت دعاء الإفطار، ولكنها لم ترتو، فهي لم تشرب منذ سقوط الطائرة سوى نصف الجوزة التي تركها لَها يوسف الليلة الماضية، فاضطرت لشرب جوزة أخرى وأسقت يوسف مثلها، ولم يتبقَ لديهما سوى أربع جوزات فقط، ما سيضطرها إلى رحلة صيد جديدة لحبات جوز الهند في صباح اليوم التالي!، وربما عليها اصطياد أكثر من إحدى عشرة حبة هذه المرة، لتفادي القيام برحلات يومية، كما أن عليها إيجاد طريقة لتوفير الطعام، فمحاولات قضم أو مضغ جوز الهند تتطلب عناءً كبيرًا بسبب صلابتها، كما أنها لا تسمن ولا تغني من جوع!.

بعد أن أسقت يوسف ماء جوز الهند لاحظت ابتلال بنطاله الجينز الأزرق الفاتح، وحينها شعرت لأول مرة بالاحتياج للتبول، فضلًا عن إحساسها بالتقزز من فستانها المتسخ وجسمها اللزج نتيجة التعرق، فخطر ببالها السباحة ولكن منظر المياه في المساء كان مخيفًا، ففضلت البحث عن وسيلة أخرى للتبول وتأجيل الاستحمام إلى الصباح،

فملأت جوزة فارغة بالمياه المالحة وتبولت خلف نخلة بعيدة بعض الشيء، ثم استنجت في تقزز من نفسها وما تفعله لأول مرة في حياتها، ولكنها على الأقل كانت أحسن حالًا من يوسف الذي فعلها قسراً في سرواله!.

لم تمر الليلة على مُلك بحال أفضل من سابقتها، ولكنها على الأقل كانت تحظى بالسحور، فقُبَيل الفجر شربت جوزتين وأسقت يوسف واحدة، فهي على موعد في الصباح مع رحلة صيد جديدة لجوز الهند تتطلب طاقة كبيرة، كما فضلت ترك الجوزة الأخيرة لتسقي بها يوسف قبل رحيلها.

....

* * *

الأرخبيل، الاثنين ٢٧ ديسمبر ١٩٩٩

ما إن حلّت الشمس بنورها على أركان الجزيرة حتى أسقت مُلكُ يوسُفَ الجوزة الأخيرة وهمّت لرحلتها، اتبعت الخطوات نفسها ولكن بتركيز أكبر في إصابة النخيل، عائدة هذه المرة بعشرين جوزة تكفيهما لثمانية وأربعين ساعة وربما لأكثر، وحين عادت أفرغت الفستان من الجوزات من دون أن ترتديه لشدة اتساخه، وأسقت يوسف جوزة تبلل

معها بنطاله من جديد، ثم جددت له صنع الكمَادات وتضميد وغسل الجرح بالماء المالح وأفرغت عليه جوزة جدَيدة لترطيبه، وبعدها غسلت فستانها والبوليرو واضطرت لنشرهما على الصخور عند التل وتثبيتهما بصخور متوسطة الحجم حتى لا تذهب بهما الرياح، أنهت مهامها في سرعة وسارت باتجاه المحيط لتنعم أخيراً بالاستحمام، فكرت في التعري التام لغسل أعضاء جسمها كافة بشكل جيد وغسل ونشر ملابسها الداخلية، ولكن ساورتها الشكوك باحتمالية استيقاظ يوسف في أي لحظة، ففضلت الإبقاء عليها وتجويد الاغتسال قدر الإمكان.

كانت الشمس دافئة والمياه نظيفة وشفافة كالزجاج، حتى إنها كانت ترى الأسماك والقواقع بوضوح، فسبحت قليلًا حتى أرهقت من تأثر ذراعها بقذف الحجارة وثقب الجوزات، كما باغتها الجوع واشتد عليها، فخرجت وارتدت فستانها ـ نصف الجاف ـ وعادت ليوسف الذي طالت غيبته، حدقت فيه لدقائق ترثي حاله وحالها من غيره، فهي تشعر بأنها المرأة والرجل في آن واحد، الأم والأب لهذا الطفل الكبير الذي لا حول ولا قوة له، ولكنها ضعيفة تواجه ظروفًا لم يخطر ببالها مواجهتها من قبل، وكان كلما اشتد عليها الأسى أمسكت بمصحفها وقرأت ما تيسر لها منه، حتى تغط في سبات ـ ليس بعميق ـ!.

....

استيقظت كعادتها بعد المغرب، تَلَت دعاء الإفطار وشربت جوزتها، ثم أسقت يوسف جوزته، ثم تبول في بنطاله وذهبت هي لتتبول عند النخلة البعيدة، ثم أخذت تقرأ في مصحفها قليلًا، ثم أخذت تنصت لأناشيد النوارس واصطفاق الأمواج وهي تحدّق في النجوم، وهكذا الملل والروتين صبغا أيامها التي تشبه بعضها بعضًا، لا جديد فيها ولا هدف، كل يوم يزيد خوفها من الوحدة أكثر وأكثر، ويزيد احتياجها ليوسف أكثر فأكثر، حتى خيّل لها أن القمر تآمر عليها ورفض الظهور في تلك الليلة ليزيد من خوفها، فتملكتها نوبة بكاء شديدة انتهت بإغماء من شدة الإعياء.

* * *

القاهرة، الاثنين ٢٧ ديسمبر ١٩٩٩

مَرَّ يومٌ، اثنان، ، ثلاثة، ، ، ولم يأت عنهم أي خبر، احتسبتهم الدولة في عداد الأموات، وأعلنت حالة الحَداد في البلاد لثلاثة أيام بدءًا من تاريخه، وزيّنت قنواتها المحلية بالشارة السوداء!، ثم نزعتها فور انتهاء مدة الحداد، واستغلتهم الصحافة مادة خصبة لنشر التكهنات حول مصيرهم وموقعهم المحتمل، وكلّه في سبيل زيادة التوزيع للجريدة أو المجلة!، أما الأهالي فمنهم من انهار ومنهم من تحلى بالإيمان والصبر ودعاء الله لرحمة ذويه، وحدها ريموندا لم تستعِب بعد

أن أخاها قد مات بحادث طائرة، ووحده سليمان كان على يقين من أن ابنته على قيد الحياة في مكانٍ ما!.

* * *

الأرخبيل، صباح الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ١٩٩٩

استيقظت مُلك مع شروق الشمس، كانت متعبة وتحظى بمسحة من السواد أسفل عينيها المتورمتين قليلًا من أثر البكاء، وتعاني مغصًا شديداً، تبيّنت ملابسها الداخلية فوجدتها ملطخة بدماء دورتها الشهرية، فاستجمعت قواها وثقبت جوزتين لها وليوسف، ثم خلعت فستانها وشورتها وملابسها الداخلية وغسلتهم جيداً ونشرتهم عند الصخور، ثم نزلت إلى المحيط عارية، وظلت تنعم بساعات من السباحة والاسترخاء، تاركة الأسماك الصغيرة تداعب ساقيها وظهرها وهي مستلقية على سطح المياه مغمضة العينين، وكأنها تشحن طاقتها بعد أن استنزفتها كافة خلال الأيام الثلاثة الماضية، حتى فتحت عينيها فجأة لتصعق بيوسف واقفًا أمامها على الشاطئ!!،

ـ انت ايه موقّفك هنا؟!!!..

ـ أنا...، أنا آسف، ماقصدش...

تشنّج جسد مُلك في المياه وشرعت في البكاء ثم صرخت فيه: انت لسه هتتأسف؟! امشي من هنا يا حيوان أنا عريانة..

استدار يوسف مبتعداً وهو يتأسف لها بشكل متكرر: حاضر حاضر، أنا آسف، ماكنتش اقصد، أنا مش مركز معلشي...

ـ استنى، هاتلي الفستان من عند الجبل وسيبه ع الشط..

ـ حاضر..

تذكرَت أن ملابسها الداخلية منشورة هناك فصرخت فيه: لأ استنى، ماتجبش حاجة وروح عند الطيارة..

ـ حاضر!.

انتظرت حتى اختفى بين أنقاض الطائرة، لكنها لم تتأكد من أنه لا يشاهدها، فاضطرت للسباحة حتى التل، وخرجت مسرعة من الماء لتتوارى خلف الصخور، ارتدت ملابسها بالكامل ـ رغم أن معظمها لم يجف بعدـ حتى البوليرو الصوف ارتدته، ثم عادت ونادت عليه، وحين عاد لم تنظر في وجهه لشدة خجلها من الموقف، بحث هو عن سجائره وقداحته وأشعل سيجارة ثم بدأ في الحديث بنبرة خافتة: أنا آسف يا مُلك ماكنتش واخد بالي بجد، أنا فُقت لقيت دماغي تقيلة جدا وناديت عليكي مالقتكيش، بصيت في المياه لقيتك بس ماخدتش بالي إنك ...، عامة ماتقلقيش أنا أصلًا من ساعة ما فُقت مش

شايف كويس وحواسي كلها لسه بتجمّع، هو أنا ايه اللي حصللي؟؟..

ردت باقتضاب: جالك حُمّى..

- حُمّى؟!، بقالي قد ايه؟، احنا النهارده ايه؟؟..
- التلات..
- ٣ ايام في غيبوبة؟!، وانتي عملتي ايه كل الوقت ده لوحدك؟..

نظر بجواره فوجد العديد من حبات جوز الهند الطازجة، فسألها: قدرتي توقعي كل دول ازاي؟!، ده انتي وقّعتي واحدة بالعافية امبارح، قصدي يوم السبت..

- من فوق الجبل، هناك النخل قريب زي ماقُلتلي، دراعك عامل ايه دلوقتي؟..
- الوجع خف شوية بس لسه مش قادر أحركه..
- سلامتك، عطشان؟..
- عطشان وجعان جدًا، الجزيرة دي مافيهاش حاجة تتاكل؟..

قالت وهي تثقب جوزتين: للأسف مافيش غير جوز الهند ده، بس قشرُه ناشف وتقشيره وأكله صعب..

ناولته إحداهما وهمّت بشرب الأخرى فباغتها بسؤاله: هو رمضان خلص؟..

انتبهت لكونها تشرب أمامه في وضح النهار ثم أجابت في حرج دون النظر إليه: مش صايمة النهارده..

كان سؤاله عفوي ولكنه فطن لحرجها، فحَرِج من نفسه ومن تتابع أفعاله وكلماته التي لها وَقع الرَجم دون قصدٍ، وحاول سريعًا تغيير مسار الحديث قائلًا: احنا ممكن نحاول نصطاد سمك، أو حتى نصطاد الطيور اللي ريحتها معفنة دي، بس هناكلها نية ازاي؟..

ـ مش عارفة بس اكيد مش هنقدر نستحمل الجوع كده كتير..

لم يكُن قد انتهى من سيجارته بعد، فألهمته لإمكانية إشعال بعض الحطب بقداحته، واستخدامه للطهي وربما التدفئة والإنارة، فهمّ بالقيام لجمع الجوزات العطنة والفارغة وبعض جريد النخيل الجاف المتناثر على الأرض، ولكنه انتبه لبقعة صفراء تتوسط بنطاله الفاتح اللون، ومن حرجه أخذ قميصه واستأذنها للاستحمام قرب التل دون توضيح.

خلع حذاءه وجوربه ثم خلع فالنَّته وبنطاله وشورت أزرق اللون ولباسه الداخلي الأبيض، وحاول جَاهدًا فك الإيشارب من حول ذراعه بأقل ألم ممكن، ثم نزل إلى المحيط، لم يقدر على السباحة ولكنه حاول غسل جسمه وجرحه قدر الإمكان، أما ملابسه فحَظِيَت بنصف غسلة على يد واحدة!.

لف الإيشارب حول عنقه وأخذ حذاءه في يده وعاد مرتديًا الشورت فقط، تاركًا بقية ملابسه منشورة على الصخور، وحين عاد كانت هي قد ثقبت جوزة جديدة لتفرغها على ذراعه كما فعلت اليومين الماضيين، وحين طلبت منه ذلك فطن لسبب خفة الألم، وتعجب لاهتمامها به لهذه الدرجة قدر إعجابه بهذا الاهتمام!.

قبيل الغروب حاولا كثيراً الإمساك بأي من هذه النوارس دون جدوى، حاولا حتى قذفها بالحجارة؛ لكن إصابة طير في السماء ببندقية أسهل بكثير من إصابته بحجر على الأرض!، واستمرا في محاولاتهما حتى أُرهقا وبدأت الشمس في الغياب، ففضّلا استغلال الوقت في جمع الجريدَ والجوزات الفارغة وإشعالها قرب الغروب.

حفر يوسف حفرة استوعبت ما جمعاه ثم أشعل بها النار، لم يكن قشر حبات جوز الهند وجريد نخيلها جيّدي الاشتعال لفترة طويلة، ولكنهما جمعا ما يكفي لقضاء الليل قبل شروق الشمس. استأذنها للذهاب إلى التل حيث تغوّط في تقزز واستنجى بماء البحر، ثم جمع ملابسه ووضع الجورب في الحذاء ـ الذي لم يعد يجد له فائدة هنا ـ وعاد مرتديًا بنطاله وفانلّته وفوقها قميصه الذي تركه مفتوحًا. أسند ظهره إلى النخلة وأشعَل سيجارة، وحينها سألته مُلك وهي تناوله جوزة مثقوبة وتهمّ بشرب أخرى: وهتعمل ايه بعد ما سجايرك تخلص؟..

باغته سؤالها، فأجاب بعد أن شرب الجوزة كلها واستدرك الأمر: مش عارف، بس أكيد لازم اقتصد في شربي للسجاير . . .

ثم تابع وهو يتفقد العلبة: كل اللي فاضل ٧ بس، اعتقد لازم اشرب واحدة بس كل يوم أو يومين . .

ـ قصدك واحدة كل أسبوع أو أسبوعين، ماحدش عارف احنا هنفضل هنا قد ايه لحد ما يلاقونا . .

فطن لما تقصده من شك في أن فرق البحث ستجدهما قريبًا، وكان هو أكثر تشاؤمًا وشكًّا في أن فرق البحث ستجدهما من الأساس! ، لعلمه الجيد بأن أرخبيل الملايو به أكثر من اثني عشر ألف جزيرة غير مأهولة، ولكنه اصطنع تجاهل جملتها الأخيرة لتشتيت تركيزها في الأمر واستكمل قائلًا: لو شربت سيجارة كل أسبوع مش هيبقالها معنى، كده كده السجاير هتخلص، يبقى استمتع باللي باقي منها احسن .

ابتسمت في صمت إعجابًا بفلسفته، ثم أغمضت عينيها في اطمئنان للمرة الأولى، ربما لما تحظى به من إنارة وتدفئة، وربما أكثر لوجوده بجانبها، ولأنها لم تستطع مَسّ المصحف وهي حائض أخذت تتلو بعض سور القرآن القصيرة في سرها حتى نامت، أما هو فأخذ يشاهدها في إعجاب وهي نائمة، انعكاس وهج النار على شعرها الأشقر بدا وكأن هالة من نور ذهبي تحيط برأسها، فشُبِّهت له وكأنها

أحد ملائكة الكتاب المقدّس، أو ربما شَبهت مَريَم العذراء لما يحمله وجهها من براءة وصَفو، حتى كاد يُقسم أنها أفضل من تستحق تجسيد دورها في مسرحيات الكنيسة، فأغمضَ عينيه مغلقًا أنوار المسرح، وسلَّط كشّاف الضوء عليها، وغاص في كرسيه بالصف الأول مستمتعًا بمشاهدتها وحده.. حتى نام.

....

* * *

الأرخبيل، صباح الأربعاء ٢٩ ديسمبر ١٩٩٩

استيقظ يوسف على صوت عطسة مُلك، فقد أصابتها الأنفلونزا بسبب ارتدائها لملابسها وهي مبتلة اليوم الماضي، فبادرها بالتحية والاطمئنان على صحتها، ثم حاول ثقب جوزتين عنها ولكن ذراعه المريضة ما كانت لتسعفه بعد، فقامت هي بالمهمة في حين اتجه هو لغسل وجهه ورأسه بماء المحيط، وحين عاد أخذ يخطط لاستثمار الوقت جيدًا حتى لا يخونهما كاليوم السابق، فأسند لها مهمتها المعتادة بجمع حبات جوز الهند ـ إذ لم يتبقَّ لديهما سوى سبع حبات فقطـ في حين تكفل هو بمحاولات توفير اللحم، وحين همّت بالرحيل طالبها بارتداء جوربه وحذائه ـرغم كبره وصغر قدميهاـ لما لاحظه على باطن قدميها من جروح شبه دامية، حاشيًا لها باطن الحذاء بالرمال

والفراغات بسعف النخيل، أما هي فاقترضت قميصه وطالبته بعدم الاقتراب من التل أو الغابة حتى عودتها.

سارت مُلك في اتجاه التل وبدأت في ممارسة طقوسها المعتادة بالتعري واستخدام ملابسها كأكياس لجمع الحجارة والجوزات، كانت خطواتها أسرع نظرًا لارتدائها الحذاء، ولكن عطساتها القوية كادت تفقدها توازنها من فوق التل أحيانًا، رغم ذلك تماسكت وأنجزت مهمتها بإسقاط ثلاث وعشرين حبة هذه المرة، ولكنها لم تجمعهم في فستانها كالمرة السابقة بل ارتدته عقب نزولها التل، بينما جمعت بعض الحبات في البوليرو والبقية في قميص يوسف، منجزة مهمة نقلهم من آخر الغابة إلى الشاطئ على مرتين.

أما يوسف فسار باتجاه الطائرة باحثًا عن أي شيء يصلح استخدامه للصيد، ولكنه لم يجد شيئًا ذا فائدة، فذهب نحو ذيل الطائرة علّه يجد ضالته هناك ولكن كما توقع لم يكن هناك سوى المقاعد المهشمة والجثث المطحونة، وحينها لمح مقعده بالطائرة والذي كان جالسًا عليه حين خانه وسلمه لقطعة الصفيح المدببة، حتى شعر بألم ذراعه ينبض من جديد، فحاول بذراع واحدة وبقسوة انتزاع الكسوة الزرقاء المربوطة بظهر المقعد، ناجحًا في ذلك ربما لشعوره بالثأر، فقط لمح حين مغادرته ألبوم صور مُلك ملقى أسفل مقعدها، فانتشله.. ثم لشعور خفي لم يعرف سببه أخفاه تحت المقعد مرة أخرى، وحين عاد

للشاطئ ربط الكسوة في قطعة من جريد النخل محاولًا استخدامها كشبكة صيد.

حين عادت مُلك بالدفعة الأولى من الجوزات وجدت يوسف واقفًا وسط المياه ممسكًا بذلك الشيء الأزرق وينادي على الأسماك في مشهد بدا كوميديًا، ولكن بعدما ذهبت وعادت بالدفعة الأخيرة وجدته يرقص فرحًا حول الكيس القماشي الملقى على الأرض، فنظرت بداخله لتجد ثلاث سمكات لم يتعدَّ حجم الواحدة نصف كفّها الصغير، ولكن الجوع وظهور الأمل في الحصول على طعام بعد يأسهما كانا كفيلَين بدفعها للرقص معه حول الكيس فرحًا.

ذهب يوسف إلى الغابة لجمع الجريد، بينما ذهبت مُلك لتنظيف السمك وغسل ونشر جورب وقميص يوسف والبوليرو، مضطرة للجلوس بالفستان من دون البوليرو على استحياء، ولكنها كانت قد بدأت الوثوق في يوسف بعض الشيء، وحين عادا أشعلا الجريد بالحفرة ذاتها، وثبتا السمكات على أسنّة ثلاث قطع من الجريد لشوائهم، ممسكًا هو بواحدة وهي باثنتين، وحين انتهيا من الشواء أصرَّ يوسف أن تأكل مُلك سمكتين وأن يأكل هو واحدة، ولكنها عارضته قائلة: لا يا يوسف انت عيان ولازم تاكل كويس عشان الجرح..

- بطلي دلع فيا أنا بقيت زي الفل...

ثم استطرد بمزحة ذات مغزى: وبطلت انزف من بدري!، انتي اللي لازم تاكلي كويس..

أحرجت لمقصده ولكنها لم تضِق به ثم قالت: طيب على الأقل كُل نص السمكة التانية وأنا نصها..

- لأ أنا الحمد لله شبعت، كُلي انتي كويس عشان تعرفي تخلي بالك مني، وبكرة يا ستي إن شاء الله هصطادلك اكتر منهم، ولا مش واثقة فيا؟..

ابتسمت ثم قالت: لا واثقة طبعا، ربنا يقويك..

- اقول لك على سر بصراحة بس ماتضحكيش عليا؟..
- قول!..
- أنا اصلي مابحبش السمك...

ضحكت بشدة فقاطعها مداعبًا: تصدقي أنا غلطان!..

- Sorry أنا آسفة، بس أصل أنا كمان مابحبوش.

أكَلا ثم ثقبت جوزتين لكل منهما فشربا حتى ارتويا، وبعدها أسند كل منهما ظهره إلى نخلته، ثم أشعل يوسف سيجارة وشرد ذهنه مفكرًا في حالهما وإعجابه بها، وحينها ضربت كريستينا مخيلته فجأة، فأحس بأن إبليس قد لعب بعقله ليقربه من مُلك، بينما قلادة مَريَم

العذراء تحاول حمايته فتُذكّره ببنت جلدته، فنفض عن رأسه غبار الفكر برمته وحاول الاستسلام لقيلولة.

أما مُلك فأخذها الحنين لمصر وأهلها، خصوصًا والدها الذي هو أقرب إليها من نفسها، فاغرورقت عيناها بالدمع حين هاجمتها وساوس النفي حتى الموت على هذه الجزيرة الكئيبة، وحاولت النداء على يوسف ولكنه كان قد غاب في قيلولته، فأسلمت عينيها للنوم ولسانها للقرآن الكريم.

....

* * *

الأرخبيل، قُبَيل فجر الخميس ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩

استيقظ يوسف بعد منتصف الليل منهكًا وذراعه تؤلمه على إثر نومه غير معتدلًا، اطمأن أن مُلك لا تزال نائمة فخلع ملابسه وقام بالاستحمام ثم جلس أمام المحيط يدخن ويفكر في كيفية تهيئة نومة آدمية، حتى بدأ الفجر في البزوغ، وحينها تفقّد مُلك فوجد صوت نفسها مرتفعًا وكأنها تنهج ولكن وضعية نومها معتدلة، فآثَرَ ألّا يزعجها.. وذهب باتجاه التل.

كان يسير وسط صحراء قاحلة تكثر بها الثعابين والعقارب التي تظهر وتغوص بالرمال من كل جانب، يتصبب عرقًا من جسده النحيل كله، وصلعته تسقط قطرات العرق على وجهه مطرًا وهو ينادي على مُلك في فزع، حتى غاص سليمان فجأة ببحر رمال متحركة لم تترك له أثرا!.

استيقظت مُلك مفزوعة على إثر ذلك الكابوس، ولكنها فهمت ـ كما علمها والدها دائمًا ـ أنها إشارة، ربما المقصود منها أن والدها يعلم أنها حية ويحاول البحث عنها، ثم تذكرت مشهد ابتلاع الرمال له، ولم تفهم الإشارة هنا، فاستعاذت بالله من الشيطان وقامت بشرب جوزة، ثم بحثت عن يوسف فلم تجده، فحاولت النوم مجددًا ولكنها لم تتمكن، فجمعت الملابس المنشورة عند التل وارتدت البوليرو وجلست تنتظر ظهور يوسف، حتى سمعت صوت صرخة قادمة من وسط الغابة!.

اتجهت مُلك صوب صوت يوسف، فوجدته ملقى على ذراعه المصابة، أسندته وعادت به إلى الشاطئ، ثم سألته: ايه اللي حصل؟..

ـ كنت بحاول اشوف الكهف ده هينفع نبات فيه ولا لأ، بس منظره مخيف جدا خصوصا إنه ضلمة كُحل..

ـ دخلته؟..

ـ لأ، قلت اشوف المغارات الأول بس مالحقتش، اتزحلقت ووقعت بعد ما طلعت حاجات بسيطة من الجبل . .

ناولته جوزة مثقوبة وشربت مثلها، ثم ضمدت له الجرح ورطبته بجوزة كعادتها، ثم لفته بالإيشارب بعد أن غسلته جيداً، وبعد أن انتهت من وصلة العناية هذه قالت له: أنا هروح اشوفهم . .

شعر بوخزة في صدره على إثر هذه الجملة وكأنها جرحت رجولته، فقد بدأ يشعر بأنه عبء وعالة عليها وأنها تقوم بكل ما يفترض أن يقوم هو به، فانتفض واقفًا وقال: لأ أنا هروح دلوقتي تاني . .

ـ لأ يا يوسف خليك مستريح انت تعبان . .

رد بحدة: أنا مش تعبان، خلاص بقيت كويس . .

فهمت سبب عصبيته فحاولت التصرف بذكاء، كان لسانها على وشك أن يطلب منه أن ترافقه، ولكن قبل أن تُفلت جملتها فطنت لكونه سيفهم ذلك كنوع من الرعاية وليس المساعدة، وفي أقل من ثانية بدلت خطتها وقالت له: أنا جعانة . . .

تسمّر أمامها للحظات!، فاستطردت هي: انت مش وعدتني امبارح تصطادلي النهارده اكتر من ٣ سمكات؟، انت عارف إني مش

هعرف اصطاد، خليك انت اصطاد لحد ما أنا اروح اشوف المغارات دي.

أرضت خطتها رجولته بعض الشيء، ووجدها منطقية إلى حد كبير، فناولها قداحته وأمرها بأخذ الحذر.

كانت الساعة قد تخطت الثامنة صباحًا حين بدأ كل منهما مهمته، وكانت قد شارفت على العاشرة حين انتهيا، فـمُلك عادت لتجد ست سمكات في الكيس الأزرق، وبجواره كومة من السعف والجريد، وبجوارهما ابتسامة فخر على وجه يوسف، فقابلته بمثيلتها وأخبرته أن المغارات الثلاث أصغر بكثير من اتخاذها كمبيت، وأن الكهف رغم ظلمته ورطوبته المرتفعة لكنه أفضل من النوم في العراء على أي حال ومساحته تكفيهما، وبالفعل جمعا أغراضهما واثنتين وعشرين جوزة وانتقلا إلى هناك.

كان يوسف يقوم بشواء الأسماك في حين كانت مُلك ترتب الأغراض وتهيئ أماكن النوم بسعف النخيل، وبعد ذلك أكلا حتى شبعا وشربا كل منهما جوزتين حتى ارتويا، ثم خلدا إلى القيلولة المعتادة لقتل الملل بعد ثرثرة كثيرة ليست ذات مغذى محدد.

قرابة السادسة مساءً استيقظت مُلك فوجدت يوسف لا يزال نائمًا، فانتهزت الفرصة للاستحمام، وخلال ساعة واحدة كانت قد

انتهت وعادت لتجد يوسف مستيقظًا ولكن مستلقيًا على ظهره يدخن في شرود، وحين لمحها اعتدل جالسًا وقال لها: صباح الخير..

- قصدك مساء الخير..

- أنا لسه صاحي من شوية، ووقت ما اصحى يبقى صباح الخير..

- صباح النور يا سيدي، دوّرت عليا؟..

- لأ كنت عارف إنك اكيد خرجتي تستحمي فمارضتش اقوم ادور عليكي لتزعقي فيا تاني وتفتكريني قاصد المرة دي...

نظرت له نظرة حانقة فضحك ثم استطرد قائلًا: دُوري، هروح أنا بقى استحمى، عايزة حاجة..

- ماتغيبش، الشمس قربت تغيب والدنيا هتضلم، والله أعلم الكهف ده بالليل شكله ايه..

- مش هغيب، خلي بالك من نفسك.

خرج يوسف من الكهف بعد أن وضع لُملك مزيد من السعف والجريد بكومة النار، ولكنه لم يتوجه صوب الشاطئ، بل توجه صوب ذيل الطائرة حيث أخفى ألبوم الصور أسفل المقعد، فقد فضل عدم اصطحابه إلى الكهف حتى لا تراه مُلك صدفة ولكي يتمكن من الاطلاع عليه بمفرده، أخذ يقلب صفحات الألبوم وصوره وعلى وجهه ابتسامة بلهاء لم يعرف مصدرها، ولكنه ظل على هذه الحال

المنتشية لقرابة ساعة، حتى انتبه لشروع الشمس في الرحيل فأعاد الألبوم لمخبأه، وتوجه صوب الشاطئ ليبلل جسمه فقط ثم ارتدى ملابسه وعاد إلى الكهف، حيث وجد مُلك جالسة القرفصاء دافسة وجهها بين فخذيها، تمامًا كما رآها في صورة منذ دقائق وهي في سن تقارب الخامسة من عمرها، وحين شعرت بوجوده مسحت دموعها واعتدلت في جلستها، فسألها عن سبب البكاء، فأجابته بأنها تشعر بافتقاد أهلها، وأخبرته عن الكابوس الذي راودها الليلة الماضية، فحاول التخفيف عنها وإلهاءها بحديث مطوّل عن اشتياقه هو الآخر لأهله وأصدقائه ومغامراته الصحفية التي سرد لها بعضًا منها ـ خصوصًا التي سببت له المشاكل ـ في محاولة ناجحة لإضحاكها، وهكذا سار بينهما مسرى الحديث حول ذكريات الجامعة والمدرسة والطفولة طوال الليل.

....

* * *

الأرخبيل، صباح الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٩٩

استيقظ يوسف شاعرًا بصداع يكاد يقسم رأسه لنصفين، ثم التفت ناحية مُلك فوجد فستانها مرفوعًا بعض الشيء كاشفًا عن ساقيها، لم يحاول سترها حتى لا يوقظها، فقط أطفأ النار وخرج

لأخذ حمّامه الذي تحايل عليه الليلة الماضية بتبليل جسمه فقط، ثم جلس أمام المحيط يدخن سيجارة ويفكر في وضعهما وهو يراقب سرطانًا صغيرًا على الشاطئ يحاول التودد لأنثى ـ كما بدا الأمر لخاطره ـ حتى ظن أنه موسم تزاوج السلطعونات، رغم أنه شاهد لتوّه السلطعونة ـ العروس ـ تضع بيضها بالرمال!.

لم يكن مستاءً ولا فرحًا، بالطبع لم يكن يرغب في قضاء ريعان شبابه على هذه الجزيرة الأبعد عن متناول البشرية من كوكب بلوتو، ولكنه كان يحاول التصرف كمسؤول، حتى لا تخور قواه أمام مُلك فتنهار هي تمامًا، فآثر تجاهل هذه الأفكار التي لن تغير شيئًا، مسلّمًا أمره لمن بيده التدبير.

ـ صباح الخير..
ـ صباح النور، صحيتي امتى؟..
ـ لسه صاحية، يادوب شربت وقلت آجي اشوفك واغسل وشي..

ناولته جوزة مثقوبة ثم سألته وهي تغسل وجهها وشعرها: كنت سرحان في ايه؟..

ـ أبدًا، كنت بستعد للصيد..
ـ طيب يلا لاحسن أنا هموت من الجوع..
ـ مش هتطلعي انتي كمان طلعة صيد لجوز الهند بتاعك؟..

ـ لأ لسه عندنا ييجي ١٥ واحدة، هساعدك النهارده في صيد السمك وبكرة ابقى اطلع طلعة لجوز الهند بتاعي.

فابتسم ثم تحرك ليشرح لها عمليًا خبرة يومين من الصيد بكسوة مقعد طائرة، وبعد ساعتين من الجد ـ الذي لم يخلُ من اللهو أحيانًا ـ عادا بما يكفيهما لوجبتين.

....

أثناء الشواء والحديث باغتته بسؤال مفاجئ: ماقُلتليش بقى، مين تينا دي؟..

تلعثم قليلًا ثم قال: وانتي عرفتي تينا منين؟!..

ـ كنت عمال تردد اسمها لما كان عندك الحُمّى..

ـ كريستينا..

ـ حبيبتك؟..

ـ أه، تقريبًا..

ـ أه ولا تقريبا؟!..

ـ ماقُلتلهاش قبل كده إني بحبها، بس احنا الاتنين معجبين ببعض..

ـ ومجرد إعجاب يخليك تنسى أهلك وانت عيان وماتفتكرش غيرها؟..

- مابحبش اسبق الأحداث، بحب اسيب كل حاجة لوقتها، هي تبقى صاحبة ريموندا اختي، يعني محل ثقة، كان ناقص بس مع الوقت اتأكد إن هيحصل بيننا توافق في كل حاجة وساعتها أكيد كنا هنوصل لمرحلة إننا نحب بعض . .

ابتسمت ثم قالت: ربنا يرجعك ليها بالسلامة . .

- وانتي بتحبي؟ . .
- كنت . .
- وأيه اللي حصل؟ . .
- ماحصلش بيننا توافق في كل حاجة . .
- ندمانة؟ . .

- اتعلمت من بابا ماندمش على حاجة عملتها أبدًا، لإني أكيد اتعلمت منها، كان زميلي في الجامعة، هو كان إنسان كويس بس دماغه مش مريحاه . .

- يعني ايه دماغه مش مريحاه؟! . .

- كان أصله طيّب، بس غاوي عَسّ . . .

ضحك يوسف بشكل هستيري فتعجبت مُلك قائلة: بتضحك على ايه؟! . .

- لا مافيش حاجة بس افتكرت موضوع كده، كملي . .

ـ كان اجتماعي زيادة عن اللزوم، ماعرفتش اتأقلم على الوضع ده. .
ـ وكان بيحبك؟. .
ـ بيقول، بس زي أي شاب قدر يتخطى المرحلة ويعيش حياته يعني. .
ـ ربنا يعوضك باللي يستاهلك.

استلقى كل منهما بمخدع نومه، واستسلما للقيلولة، وفي الساعات الأخيرة من مساء اليوم الأخير من السنة، استيقظ يوسف على إثر حلم رأى فيه نفسه بمواقع الاحتفالات بالألفية في سيدني كما شاهدها في وسائل الإعلام، شعر بالعطش الشديد فحاول ثقب جوزة بكعب حذاء مُلك كما يشاهدها تفعل، ولكنها انكسرت منه ـ خصوصًا وأنه ما زال يستخدم يده اليمنى ـرغم أنه أعسرـ فاستيقظت مُلك، وحين انتبهت لمنظره واقفًا كمن فعل فعلة ينوي التنصل منها كانت ضحكاتها تهز أرجاء الكهف والتل بأكمله، فشرعت في تنظيف الفوضى التي أثارها بالمكان، وشرحت له عمليًا خبرة أسبوع كامل من ثَقب حبات جوز الهند بكعب حذاء نسائي مدبب، وبعد أن شربا نظر لساعته فوجدها قد تخطت الثامنة مساءً، فعرض عليها الاستعداد للاحتفال برأس السنة بحفل شواء على الشاطئ.

أعدّا العدة والسمك وافترشا شاطئ المحيط تحت القبة الزرقاء ذات النجوم المضيئة يتوسطها القمر في تربيعه الثاني، وأثناء تناول العشاء كانت الساعة قد دقت التاسعة، فقال بنبرة يشوبها شيء من الشجن: أستراليا دخلت دلوقتي السنة الجديدة، كان المفترض أكون دلوقتي في سيدني، لو كنا قريبين من هناك كنا شوفنا السما ضهر من كتر الألعاب النارية اللي متجهزة لليوم ده..

- كويس إنك مارُحتش، كل ده فشنك، ملحوقة السنة الجاية في احتفالات الألفية التالتة اللي بجد بقى..

صمت يوسف لوهلة متذكرًا الحلم فقال: تعرفي إنى حلمت بالاحتفالات قبل ما اصحى من شوية؟، كنت أنا وديڤيد ورامي، بس غريبة إن مصطفى ماكانش معانا في الحلم!..

- ربنا يرحمهم جميعًا..

غطت الدموع عينَىّ يوسف وشرد للحظات فحاولت مُلك استدراك الموقف قائلة: جرى ايه يا عم چـو انت عامل لي الجَو الرومانسي ده عشان تقلبها دراما ولا ايه؟..

ضحك يوسف ضحكة متعبة ثم مسح دموعه وأشعل سيجارة، وحينها بدأ في السرد: ديڤيد كان اكتر من اخويا، أنا وهو متربيين سوا، أمي من النوع الإنِف حبتين وماكانتش بتحبني اروح عند

أصحابي ولا بتحبهم يجولي البيت، ماعدا ديڤ، كانت بتحبه أوي وبتعتبره زيي بالظبط . .

ـ وهو اللي علمك برضه شرب السجاير؟ . .

ضحك قائلًا: الحقيقة أه بس كان رد جمايل، أنا علمته الشيشة وهو علمني السجاير . .

ـ ونِعمَ الوفاء بالجِميل! .

وهكذا أخذ يسرد لها مواقفه مع ديڤيد بالكنيسة والمدرسة والجامعة والوكالة، وحين دقت الساعة الثانية عشر وقف ثم انحنى لها وهو يقول في نبرة مسرحية: مرحبًا بك في الفاتح من كانون الثاني المُعظَّم يا مولاتي، نولّع بقى سيجارة احتفالًا بالعام الجديد . .

ضحكت على إثر حركته المفاجئة ثم قالت: فاضل معاك كام سيجارة؟ . .

ـ ٢ . .

ـ طب حافظ عليهم بقى . .

ـ تعرفي، حالتين بس اللي بحتاج فيهم النيكوتين، وأنا متضايق، ووأنا بفكر . .

ـ طيب أنا ممكن احاول اخليك ماتتضايقش، إنما ازاي هخليك تبطل تفكر؟ . .

ابتسم ابتسامة لئيمة وقال بنبرة متغيرة: الحقيقة دي الحاجة الوحيدة اللي مابطلش اعملها، حتى وأنا نايم!، عشان كده بدوّر على بديل للسجاير الفترة الجاية . .

- زي ايه يعني؟! . .
- زي الرغي معاكي مثلًا . .
- بكّاش أوي، انت برج ايه؟ . .
- الجوزاء . .
- غريبة! . .

ضحك مستفسراً: اشمعنى؟ . .

- صفاتك بتقول سرطان . .
- مش غريبة أوي، أنا مواليد ٢١ يونيو، آخر أيام الجوزاء، وفيه ناس بتعتبره أول أيام السرطان بس مش شائع أوي . .
- كلامك صح، شكلك بتقرا في الأبراج . .
- لأ خالص، بس زي أي حد يعني بيعرف على الأقل برجه ايه، وانتي غاوية تِقري في الأبراج؟ . .
- يعني، ساعات كتير بتقول كلام صح . .
- مش دايمًا، انتي مواليد كام؟ . .

ـ ٢٢ سبتمبر . .

ـ امم ميزان؟ . .

ـ فرقت بونت . .

ـ تبقي عذراء . .

ـ آخر يوم في العذراء . .

ـ عشان كده مدّية على ميزان شوية . .

ضحكت قائلة: واشمعنى برج الميزان اللي تعرف صفاته طالما مش مهتم بالأبراج؟ . .

فابتسم قائلًا: فيكي كتير من تينا! .

* * *

القاهرة، مساء الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٩٩

في منزل أسرة المهندس يحيى غبريال لم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الاحتفال المعتادة سنويًا بليلة رأس السنة والموافقة لليلة عيد ميلاد ريموندا، حتى شجرة الكريسماس لم تدخل المنزل، فقضى المهندسان الليلة في الصلاة، من دون ريموندا التي لم تخرج من غرفة يوسف ولم تنطق حرفًا منذ النبأ المشؤوم، وكأن البيت يسكنه أشباح من بعد رحيل روح يوسف الطاهرة عنه.

أما أسرة الدكتور سليمان عبد العزيز فقضت الليلة في استقبال أفراد العائلة الذين ظلوا يتوافدون إليهم للتعزية من المنصورة حيث تعود أصول الدكتور والسيدة چيهان، وبخلاف سائر أفراد أسرته لم يشعر الدكتور سليمان بالمواساة في تعازيهم بل كان يضيق بها، وتمنى لو يقول لكل فرد يمد له يده ليشد من أزره "كلماتكم فأل شرٍ وكفيلة بقتلها"، لكن الصبر كان حليفه في تلك اللحظات الصعبة.

وبحلول السابع من يناير بالعام الجديد انتقلت عائلة الدكتور عقب رؤية هلال شوال إلى قريته بالمنصورة لقضاء عيد الفطر بمنزل والدته، وحين انتقلت زينب أيضًا من المركز إلى منزل والدتها بالقرية ـ لقضاء العيد بجانب أخيها المنكوب ـ تلاعب الشيطان برأس چيهان ليصور لها أن زينب شامتة فى موت مُلك، فما بين السيدتَين من ضغائن إضافة إلى ما بچيهان من عدم اتزّان بسبب الحادث كان كفيلًا بترسيخ نظرية المؤامرة بعقلها المحدود نسبيًّا، ولكن الإيجابي في الأمر أنه ألهاها بعض الشيء عن الحزن على مُلك بالتركيز مع كلام وتصرفات زينب!.

أما عائلة المهندس فحضرت قداس عيد الميلاد المجيد بمطرانية أسيوط، حيث انتقلوا قبلها بيومين إلى بيت أعمام يوسف، علَّ أولاد وبنات عمومته يقدرون على إنطاق أخته، ولكن حالة ريموندا النفسية

كانت أصلب من محاولاتهم الواهنة خصوصًا وأن ارتباطهم بيوسف لم يكُن بالضعيف.

* * *

الأرخبيل، صباح السبت ٨ يناير ٢٠٠٠

استيقظت مُلك من النوم فوجدت يوسف جالسًا في شرود وهو ينظر إلى سيجارته الأخيرة، فالتقطت جوزتين مثقوبتين سلفًا وناولته إحداهما، ثم قالت وهي تهم بالشرب: صباح الخير..

- صباح النور، ايه ده مش صايمة النهارده يعني!، ده مافاتش غير أسبوع واحد على...

التقطت الجملة من على شفتيه قبل أن يكمل دعابته الثقيلة: النهارده أول يوم العيد، كل سنة وانت طيب..

- احم، وانتي طيبة..
- انت مش لسه شارب سيجارة امبارح احتفالًا بعيد الميلاد المجيد؟، بالزمة دي مناسبة تحتفل فيها بسيجارة؟!..
- لما تخلص السجاير هبقى احتفل بشكل تاني..

فردت مُلك ساخرة: وناوي تشرب السيجارة دي دلوقتي احتفالًا بعيد الفطر ولا ايه؟..

ـ لأ مش هشربها دلوقتي أصلًا! . .

ـ أومال كنت بتبصلها بحسرة كده ليه؟! . .

ـ مستني الاحتفال اللي يليق بيها . . باقي مِنَ الزمن سيجارة! .

طوال الأسبوع الماضي لم يفوّت يومًا دون الاختلاء بألبوم صور مُلك لبضع دقائق، حتى حفظه كما اسمه، وحفظها كما نفسه، كان ألبوم غنيًا بصور كثيرة لُملك في مراحل عمرية مختلفة وكأنه شريط فيلم يوثّق قصة حياتها، فحفظ تعبيرات وجهها في مختلف المواقف، وأنواع نظراتها وضحكاتها ـ التي لم تفوّت كاميرا أبيها وهوايته في التصوير أي منهاـ، وحين طُبعت مُلك بذاكرته قرر اصطحاب الألبوم إلى الكهف، ولكن في اللحظة الأخيرة راوده ـ بلا سابق إنذارـ ذلك الشعور الخفي نفسه بالميل لإخفاء الألبوم، فوجد يده تمتد لتعيده أسفل مقعد الطائرة مجدداً .

* * *

القاهرة، منتصف يناير ٢٠٠٠

كانت امتحانات نصف العام الدراسي، وكانت أول مرة تطأ قدما ريموندا الجامعة منذ الحادث المشؤوم، لم تستذكر حرفاَ من دروسها، ولم تكن تنتوي خوض الامتحانات من الأساس ولكن والداها أقنعاها بالذهاب أياَ كانت النتيجة، وأمام الكلية لمحتها

كريستينا فنادت عليها حتى أخرجتها من شرودها: ريموندا، ريمونداا!!..

- ازيك يا تينا؟..
- الحمد لله، انتي عاملة ايه؟..
- الحمد لله..
- مافيش أخبار عن الطيارة؟...

صمتت ريموندا وأشاحت بوجهها، فردّت كريستينا: ربنا يرحمه..

- يوسف ماماتش..
- أنا كمان مش قادرة استوعب موته..

ردت ريموندا في عصبية: بقول لك يوسف ماماتش يا كريستينا، يوسف عايش وهيرجع.

ثم تركتها وذهبت إلى لجنة الامتحان متجاهلة كل عبارات التعزية من زملائها الذين حاولوا استيقافها، وكان كل ما رأته في ورقة الأسئلة عبارة عن علامات استفهام وحروف لم تميز منها سوى (ياء، وواو، وسين، وفاء) متناثرة بطول وعرض الصفحة، يكبر حجمها وتومض أحيانًا - مع تغطية الدموع لمُقلتيها- وكأنها تقصد إغاظتها، فما شعرت بيدها إلا وهي تشطب الحروف واحدًا تلو الآخر وكأنها تصطادهم

كلما ظهروا، حتى جُن جنونها ومزقت الورقة وخرجت من اللجنة مسرعة في اتجاه المنزل، وفور وصولها غرفة يوسف أخذت تتحدث لصورة المسيح المصلوب بصوت مرتفع وكأنها تعارضه في حُكمه بما أصاب أخاها، تصارعه وكأنها لم تؤمن به قَط، وتعاتبه وكأنه أقسم لها من قبل بأنه لن يأخذ روح شقيقها ـشقيق روحهاـ مادامت حية. . حتى سقطت مغشيًا عليها من شدة الصراخ.

....

بحلول منتصف فبراير التقى الدكتور سليمان بطلابه للمرة الأولى منذ الحادث المشؤوم في أولى محاضرات الترم الثاني من العام الدراسي، مستقبلًا التعازي ـ للمرة الأولىـ بصدر رحب رغم عدم اقتناعه بَعد بموت مُلك، ولكنه لم يحاول التصريح بذلك ولا حتى لأهل بيته حتى لا يثقل عليهم أو يتهمه أحدهم بفقدان عقله، بل كان مقتنعًا أشد الاقتناع بأن الله لن يخيب ظنه، خصوصًا وأنه رآها في حلم ـحسبه رؤيةـ بالليلة السابقة، بدت فيه وكأنها ملكة يزيّن رأسها تاج من الزهور البيضاء الصغيرة، وجالسة على عرش من الصدف يحمله دلافين مرحة، وعلى وجهها ابتسامة رضا بما أوتي إليها من مُلك!.

* * *

الأرخبيل، أواخر مارس ٢٠٠٠

انقضى شهرهما الثالث في هذه الجزيرة غير المأهولة بغيرهما وكأنها مملكتهما الخاصة، صارا متأقلمَين إلى حد كبير، فالغذاء أصبح متوافراً خصوصًا بعد أن تعلمت مُلك كيفية الصيد إلى حد ما، وبعد أن شفيت ذراع يوسف وأصبح قادراً على قذف حبات جوز الهند بيسراه، حتى النوارس ابتكر لها يوسف شَرَكًا من الجريد والسعف مزوّدًا بطُعم من السرادين الصغيرة، كما اعتادا تناول المُحار والحلزونات والسلطعونات الصغيرة كمُقبِّلات، وحتى الماء أصبح متوافراً بعد ملء الجوزات الفارغة بمياه المطر وسد ثقوبها بلفافات من السعف ثم حفظها بالكهف، كذلك نجحا أخيراً في إشعال النيران بقش جوز الهند والسعف الجاف باستخدام شَرار القداحة فقط بعد أن نَفَدَ منها الغاز مؤخراً، مشكلة وحيدة باتت تواجههما ـ ليست بكبيرة جداً ولكنها ستصبح كذلك حال تجاهُلها فقطـ وهي مشكلة الشَعر الزائد، فلحية يوسف باتت تشبه ذقون الشيوخ ـرغم أنها زادته وسامة عمومًاـ ، أما مُلك فباتت ترتدي البوليرو ليلًا ونهاراً لتغطية ذراعيها وتحرص على ألّا يَظهر أي جزء من ساقيها، فضلًا عن شعورها بالتقزّز من شَعر . . . ، لا علَينا!، المهم أنها أصبحت تشعر بالضيق من نفسها لعدم تعودها على ذلك، كما أنها ما زالت ترهب آلام تجربة استخدام يديها الخاويتين ـدون عجينة إزالةـ رغم أن شعر جسمها بشكل عام قليل وخفيف جداً.

في هذه الفترة كانت مُلك تقضي معظم ساعات النهار في تعليم يوسف السباحة حسب طلبه، ووافقت على أن ترتدي قميصه فوق الشورت، شريطة أن يدير ظهره وهي تخلع الفستان وحتى تخفي جسدها في الماء، وأن يفعل الشيء نفسه عند الطلوع من الماء وحتى ارتدائها الفستان مجددًا، وبالفعل أخذت على عاتقها بشكل جدّي تعليمه السباحة، ولكن لم تعرف الفتاة كيف لهذا الشجاع الذكي أن يكُن على هذا القدر من الجُبن تجاه المياه، فما يكاد يفرد جسده على صفحة المحيط حتى يتشنّج ويسقط ككتلة حديدية، ولكنها قطعت معه شوطًا كبيرًا حقًا خلال أسبوعين كاملين، تعلَّم فيهما ألّا يسبَّ الدين للمياه المالحة بمجرد دخولها أنفه مقتحمة المخ ـ كما يقول في كل مرة!ـ.

لا تنكر إعجابها به، فهو سندها ورجلها الآن شاءت أم أبَت، ولا تنكر أيضًا أن هذا الإعجاب يزيد مع إحساسها بإعجابه بها، وتلميحه بذلك أحيانًا عن قصد ودون قصد، ولكنها كانت ترهب تفاقم هذا الإعجاب حد العشق، وما كان لهما من ذلك مناص في ظل ظروفهما المؤدية لنتائج حتمية حال بقيا هنا، فكان ذلك أكثر ما يقلقها ويشتت ذهنها.

أما محاولات تبديد الملل طيلة الأشهر الماضية كانا ـ وما زالاـ يقضيانها في الحديث حول الصحافة والتاريخ والفلسفة والأدب، فضلًا عن الجغرافيا التي يعشقها يوسف ـحتى إنه أخبرها باتجاه القِبلة دون

بوصلة-، والإشارات التي تؤمن بها مُلك -حتى إنها كانت تفسر له معظم أحلامه-، وغيرها من أمور الثقافة والحياة، ولكن معظم الحديث كان يدور حول معتقداتهما الدينية دون محاولة أي منهما استمالة الآخر لدينه، أي حول محاولة كل منهما فهم ما هو مُبهم بالنسبة له في دين الآخر، فعلى سبيل المثال صُعقت مُلك حين علمت من يوسف أن المسيحيين يصومون لاثنتي عشرة ساعة على الأقل في معظم أيام الصوم صيامًا كاملًا عن الطعام والشراب مثلهم مثل المسلمين تمامًا، ففكرتها الأولى عن صيامهم لم تكن تتعدى الامتناع عن أكل كل ما به روح لعدد من الأسابيع دون معرفة الحكمة من ذلك حتى! ، بينما الصعقة القاتلة ضربتها حين علمت أن الديانة المسيحية لا تجيز للنساء ولا الرجال الزواج من غير المسيحيين، وأن من تفعل أو يفعل ذلك يخرج من الملّة ولا تعترف به الكنيسة كمسيحي، موضحًا لها أن عكس ذلك شائع بالغرب لأن إيمانهم ضعيف أو غير موجود من الأساس، وأن الدين بالنسبة لهم يُعد ضمن الشكليات أو يقع في ترتيب أولويات حياتهم بالمرتبة التاسعة مثلًا -حسب تعبيره-، فضلًا عن تيهها في متاهة الفروق بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت. أما هو فصُعق أيضًا حين علم من مُلك أن الإسلام لا يكفِّر المسيحيين -أو النصارى حسب تعبيره حينها- بالمعنى الشامل للكُفر بالله، أو أن القرآن يساوي بينهم وبين كفار قريش مثلًا في آياته، وإنما لفظة "الكُفر" هنا تعني فقط أنهم غير مؤمنين بدين الإسلام ورسوله محمد عليه الصلاة

والسلام . . إلى آخره من تفاصيل الموضوع، كما أنها لم تكن تفهم ـ ولم تفهم أيضًا حين شرح لها يوسف ـ الفرق بين اللاهوت والناسوت وماهية الثالوث وفكرة أن يكون الآب والابن والروح القدس شيء واحد ـ إذا صح استخدام لفظ شيء ـ أو شخص واحد ـ إذا صح كذلك استخدام لفظ شخص ـ، وأحيانًا كان يحتدم بينهما النقاش حول فكرة قيامة المسيح، حيث كانت تسأله: ازاي إله يموت من غير ما يدافع عن نفسه؟، وازاي أصلًا مؤمنين بحاجة ما يصدقهاش عقل زي دي؟! . .

ولكنها صمتت عن ذلك حين سألها: طب وانتو ازاي مصدقين إن بشري زينا أُسريَ به من مكة للقدس في ثواني معدودة وصلّى بالأنبيا كلهم، وأُعرجَ به للسماوات السبعة في أقل من كده؟، وازاي مؤمنين بحاجة ما يصدقهاش عقل زي دي؟!.

ولكن بعد جدال طويل حول أن لكل دين ونبي معجزات خلصا إلى أنه بالتبعية لكل دين أحداث لا يهم أن يصدقها عقل. . وإنما أن يصدقها قلب، وهكذا توالت الصعقات حتى صحح كل منهما فكرته أو الصورة الذهنية التي لديه عن الآخر ـ أي الدين الآخر ـ قدر الإمكان.

* * *

القاهرة، أواخر مايو ٢٠٠٠

كانت الأشهر اللاحقة لحادث الطائرة ثقيلة على مريم بشكل كبير، فقد شعرت وكأنها كبُرَت عقداً من الزمن، خصوصًا وأنها أضحت الابنة الوحيدة والتي ستعلق الأسرة آمالها عليها بعدَ رحيل أختها، وعليه لن يبقى هناك مزيداً من التدلل على الكبيرة.. بل أصبحت هي الكبيرة الآن والمسؤولة الأولى عن مرافقة ورعاية أخيها الصغير الذي لم يع الحياةَ بَعد، فكان ذلك الشعور القاسي بالوحدة مرهقًا لنفسيّتها بشكل صَعُبَ معه انتظامها في الحضور إلى المدرسة، فحاولت في الشهر الأخير من الدراسة استنزاف جهدها كله في التركيز في دروسها لتعويض ما فاتها، وتحقيق النتيجة المطلوبة بامتحانات الثانوية العامة للالتحاق بكلية الصيدلة كما تمنت.

أما ريموندا فلم تضيع الوقت بالامتحانات، فهي تعرف مسبقًا أنها سترسب بناءً على نتيجة الترم الأول، والذي لم تحضر به أي امتحان، فلم تقدر على نظرات زملائها وكلماتهم التي خافت أن تقنعها بموت يوسف، فقضت فترة الامتحانات في عزلة معتكفة بدير أبي سيفين بسيدي كرير في الإسكندرية، حتى تستعيد نفسها وإيمانها الذي خافت أن يتزعزع على إثر حديثها الأخير لـيَسوع، وعقب تحسن صحتها آثرت قضاء ما تبقى من أشهر على حلول العام الدراسي

الجديد في الخدمة بكنيستها، والمشاركة بمؤتمرات الكهنوت في محافظات مختلفة، حتى كريستينا قطعت علاقتها بها تمامًا لما تشعر به من ألم تجاه منظرها الشاحب وجسدها النحيل وكثرة ثرثرتها حزنًا على موت يوسف. . كما تعتقد.

* * *

الأرخبيل، مساء الثلاثاء ٢٠ يونيو ٢٠٠٠

باقي من الزمن ساعة، حضَّرَت كل شئ، الطعام والشراب والمقبّلات، وأشعلت بجوارهم النار في جريد وضعته على شكل حرف "Y"، ارتدت ملابسها كاملة ولفت طرحتها على منتصف رأسها لفة واحدة بغير إحكام، ثم أيقظته من قيلولته في تمام الثانية عشر وطلبت منه أن يصعد معها التل لأمر مهم، وحين استدار ناحية الشاطئ وشاهد الحرف المشتعل دمعت عيناه، فهمست مُلك في رقة: كل سنة وانت طيب يا يوسف. .

ـ وانتي طيبة يا رب، انتي لسه فاكرة عيد ميلادي؟ . .

ـ طبعًا يا عم جوزاء السرطان. .

ـ مش عارف اشكرك ازاي بجد، ربنا يخليكي ليا. .

ـ غمض عينك. . .

ألبسته في يُمناه سواراً مجدولًا صنعته من السعف، ولبست هي أيضًا في يُمناها مثيل له، ثم قالت وهي تَثني ركبتيها في حركة خفيفة: كل عام وأنت بخَير يا مولاي مَلِك حُزَيران المُعظَّم.

ضَحك وقبَّل يدها، ثم نزلا التل لبدء الاحتفال.

* * *

القاهرة، منتصف سبتمبر ٢٠٠٠

كانت تشعر ريموندا بالراحة في بداية العام الدراسي الجديد كونها لا تعرف أحدًا من زملائها الجدد، ما سيساعدها على الاحتفاظ بشرنقتها الخاصة دون اقتحامات، فقد استعادت جزءًا لا بأس به من نفسها القديمة، لكنها لم تفقد ثقتها بعد في أن يوسف سيعود يومًا ما رغم تأخر ذلك اليوم، حتى إنها قاطعت والدَيها لفترة بسبب قيامهما بعمل دفن وجنازة رمزية ليوسف في يوم عيد ميلاده، كما أنها قاطعت كريستينا تمامًا واعتبرتها خائنة بسبب انعقاد خطبتها على شخص غير أخيها، ولم تحضر (الجابنيوت) حين دعتها منذَ أيام.

أما مريم فلم يحالفها التوفيق في تحصيل الـ٩٧٪ المطلوبة للالتحاق بصيدلة القاهرة، بالكاد حصلت على ٩٥٪ أهّلتها لكلية الإعلام بالجامعة نفسها، ولكنها في بداية العام الدراسي كانت تشعر بضيقٍ

شديد، فهي لم تحب يومًا الكليات الأدبية، ولم تتخيل نفسها من قَبل صحفية أو مذيعة.

وأما مالك فقد بلغ عامه السابع وانتقل للصف الثاني الابتدائي، وبدأ يستوعب ـ بعد التخزين لتسعة أشهرـ معنى أن أخته قد ماتت.. أو فقدت.. أو هكذا يقولون إنها لن تعود للبيت ثانيةً، فأغلق على نفسه صدفة سميكة، استحال معها هدوؤه وطيبته إلى عصبية وعدوانية مفرطة تجاه من يحاول اختراقها من زملائه!.

* * *

الأرخبيل، مساء الخميس ٢١ سبتمبر ٢٠٠٠

استيقظ يوسف من قيلولته قرب العشاء، كان يقصد تضييع اليوم في النوم وألّا يحضّر تجهيزات للاحتفال بليلة عيد ميلاد مُلك، وتناسى أن يقُل لها "كل عام وأنت بخير" بحلول منتصف الليل، ورغم كونه ممثلًا فاشلًا بجدارة استطاع التحكم في تعبيراته ولم يظهر عليه شيئًا حتى بدأ يلاحظ القلق على وجهها عقب مرور بضع ساعات بعد منتصف الليل، وحين اشتد بها الضيق ولجأت إلى الردود المقتضبة على كلامه ـ في محاولة لإخفاء حزنهاـ تمالك أعصابه واستجمع قواه وقال لها في

هدوء مفتعل بحنكة تغلّفه موجة برود موطنها الأصلي القطب الجنوبي: أنا خلاص بنام مش قادر..

فردت باقتضاب وهي تدير ظهرها ناحيته: أه وأنا كمان، تصبح على خير..

فضحك سراً ثم قال وهو يتثاءب: وانتي من أهله.

لم يكن يقصد تجاهلها أو نسيان تاريخ ميلادها ـ كما حاول التصدير لعقلها ـ، بل كان ذلك كله تكتيكًا أملًا في أن يفاجئها بحق في اليوم التالي كسراً لروتين الاحتفالات المتوقعة بليلة عيد الميلاد في موعدها، وفور سماعه ارتفاع صوت نَفَسها بوضوح ـ كعادتها أثناء النوم العميق ـ تحرك لتحضير التجهيزات، فقد قرر أن يُقم الاحتفال على جزئين، الأول داخل الكهف، والثاني فوق التل، أما الأول فكان بتزيين الكهف بأحب صور مُلك إلى قلبه، فها هو للمرة الأولى يعرف أسباب الشعور الخفي الذي أرغمه على إخفاء الألبوم كل هذا الوقت منذ وجده، فقد حاول أن يحتفظ بشيء من أكثر الأشياء قيمة بالنسبة لمُلك كي يقدمه لها في مناسبة كهذه، علّه يحظى بإحدى هذه النظرات والضحكات ـ التي تملأ الصور ـ في مشهد حيّ حين تُفاجأ بالألبوم، وأما الثاني فكان بتحضير الطعام والشراب فوق التل، للاستمتاع بتناوله نهاراً أمام معانقة البحر للسماء على امتداد الأفق الأزرق.

في صباح اليوم التالي استيقظت مُلك فوجدت صورة مثبتة صوب موضع فراشها، تجمعها بأفراد أسرتها أمام منزل العائلة في المنصورة، فظنت أنها تحلم ولكن حين دارت بعينيها في المكان وجدت المزيد من صور ألبومها، وحين انتبه يوسف لكونها استيقظت وجد مُقلتَيها قد ذابتا في الدموع، فاقترب منها وقال: أكيد مانستش عيد ميلادك، كل سنة وانتي طيبة..

جعلت الدموع عينيها الخضراوَين تلمعان فكانتا أشبه بحجرَي زمُرد، تمامًا كما رآها في صورة لعيد ميلادها ـ يظنه السابع عشر أو الثامن عشرـ ثم قالت وهي تبتسم: أنا كنت فكراه اتحرق، انت لقيته فين؟..

ـ بالصدفة كنت بنكُش كده في ديل الطيارة فلقيت الألبوم واقع تحت كرسيكي..

ـ مش عارفة أقول لك ايه، بجد فرحتني.

ثم أخذها وصعدا التل، وسار برنامجه لعيد ميلادها كما رتّبه تمامًا، ثم قضيا بقية اليوم والليلة في حكايات صور ألبومها.

* * *

الأرخبيل، الأحد ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٠

توقفت ساعة يده ـ التي تظهر اليوم والتاريخ ـ منذ أسابيع، واستعوض عنها بالنحت على جدران الكهف لحساب الأيام والشهور والسنين، ولكنه لم يستطع حساب الساعات بدقة، فاستعوض عنها هو ومُلك بالمواعيد التقريبية مثل (الصبح، وبعد الظهر، وآخر النهار، وبعد منتصف الليل).

اليوم يمرّ على سقوطهما في هذه الفجوة المكانية عام كامل، عام ملئ بالصراعات المعيشية والنفسية بل والدينية أيضًا، فقد استقر بقلب كل منهما عشق الآخر، ولكن دون الإفصاح عن ذلك صراحةً، فالرب والدين كانا دائمًا كالجدار العازل بينهما، فلا ضحكة تكتمل إلا ويعقبها وجع، ولا فكرة تبدأ إلا ويقطعها استغفار، ولا لمسة غير مقصودة ـ أو مقصودة في ثمالة عشق ـ إلا ويصاحبها انكماش، فاستحالت حياتهما إلى جحيم لذيذ، تمامًا كمدمني المخدرات والكحول، فلا للمخدرات أثر نافع ورغم ذلك لا يستغني عنها مدمنيها، ولا للكحول مذاق طيب ولكن مرارته في حَلق مدمنيه كافُور!.

ولكنهما لم يستسلما لذلك الجحيم، بل حاول كل منهما جذب الآخر إلى طريق جنته التي يؤمن بها، فعلي مدار أربعة أشهر حاولت مُلك استمالته إلى الإسلام، حتى إنها كانت تتعمد المحافظة على

الصلوات الخمس وقراءة القرآن من مصحفها بصوت مرتفع أملًا في أن تتسلل كلمات الله إلى قلبه، لكن إيمانه بدينه كان أقوى من محاولاتها. . ومن عشقه لها، فركنت إلى الاكتئاب وانتظار الموت على هذه البقعة الخضراء الكئيبة، ولكن يوسف لم يركن إلى ما ركنت هي إليه، بل كان اكتئابها هذا بالنسبة له بمنزلة استسلامها في هذه الحرب الباردة الطويلة، أما هو فما زالت رايته الحمراء محتفظة ببعض من خفقانها، فكان دائم الحديث عن المسيح والقديسين والعهد القديم، مُجيداً الدخول لعقلها من ثغرة اهتمامها بالتاريخ والحضارات وارتباطهما بالأديان، ولكن آماله كلها تحطمت خلال ثلاثة أشهر آخرين على صخرة تمسكها بدينها وعدم تعوُّد عقل المسلمين العرب بشكل عام على قبول فكرة التنصُّر أو استيعابها ـ إلا في حالات فريدة قليلة ـ، وحينها بدأ جحيمهما اللذيذ في الاستحالة إلى جحيم مُهلك، فكانا كثيرَا الشجار، قليلَا الكلام، شديدَا العصبية والتوتر، وظلَّا على هذه الحال طيلة شهرين إضافيين، حتى قرر يوسف بعد معارك الشد والجذب والشجار هذه ـ والتي دامت لتسعة أشهر ـ أن يحسم الأمر بعد أيام في ليلة عيد ميلادها الثالث والعشرين.

* * *

نيويورك، صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١

في تمام التاسعة إلا ربع صباحًا كان كل شيء في المدينة الجميلة المزدحمة اعتياديًا، الناس يسيرون في عجالة، والسيارات تصطف في طوابير طويلة في إشارات المرور، وشاشات الإعلانات تتداخل ألوانها في أعين المارة، وكأن لا أحد ينام في نيويورك! ، وبعد دقيقة واحدة فقط توقف كل شيء، وكأن الذعر تجسَّد في تلك الطائرة التي خيمت على سماء (مانهاتن) قبل أن تصطدم بالبرج الشمالي من مركز التجارة العالمي، لتتعالى الصرخات والصيحات وصافرات الإنذار وينقلب كل شيء رأسًا على عقب، وبعد ربع ساعة تقريبًا اصطدم ذعرٌ آخر بالبرج الجنوبي من المركز في مشهد أكثر رعبًا من سابقه، وبعدها بنصف ساعة اصطدم ثالث بمبنى وزارة الدفاع (البنتاجَون)، محوّلًا هذه المدينة الساحلية الباردة إلى أسخن بقاع العالم لفترة من الزمن، فالولايات المتحدة الأمريكية استيقظت كلها مبكراً مذعورة على هذا الكابوس، وفي النصف الشرقي من العالم كانت كل أجهزة التلفاز في المنازل والأعمال والمؤسسات وقصور الرئاسة والملكية لا تنقل إلا مشهد سقوط البرجين، وكأن الناس يشاهدون علامة من علامات الساعة في بث حي، حتى انقسموا على نفسهم إلى قسمين، فمنهم من تأثّر وحَوقَل واستغفر وذرف الدموع، ومنهم من هلل وكبَّر وزغرد ودعا على أمريكا وسلسفيل أهلها أن يهلكوا، وما كان أكثرهم بين العرب والمسلمين.

قرابة ثلاثة آلاف ماتوا في هذا الحادث المروع، ولكن من شمتوا بهم من شعوب وحكومات لم يعرفوا حينها أن أرواح هؤلاء المزهوقة ستصبح سببًا في إزهاق أرواح آلاف من أبرياء آخرين على يد أمريكا وحلفائها باسم محاربة الإرهاب، بل وستطال لعنة العنصرية العربَ عامة والمسلمينَ خاصة في شتى بقاع الغرب، لاسيّما في أمريكا والتي ستعاملهم منذ اللحظة كإرهابيين حتى يثبت العكس.

* * *

الأرخبيل، مساء الجمعة ٢١ سبتمبر ٢٠٠١

تردد كثيرًا قبل الإقدام على تنفيذ قراره، كان يخاف ردة فعلها، وأن تتأزم الأمور بينهما أكثر من ذلك، ولكنه لم يجد بُدًّا منه مهما طال الهروب، فعاجلًا أم آجلًا ستأتي تلك اللحظة، إذن فوقوع البلاء خيرًا من انتظاره ـ إن كان سيختتم اليوم ببلاء فعلًا ـ.

أعد كل شيء في ليلة عيد ميلادها كما رتّب له، وحاول أن يجعله أكثر إسعادًا من سابقه، حتى أنه استحضر كل ما فعلاه في عيديّ ميلادهما العام السابق مجمّعَين وزاد عليهما، من الهدية إلى الطعام والشراب واللهو والسباحة وحتى الحديث، كل ذلك رتّب له وحسب حسابه، ولم يبقَ سوى التنفيذ، علّه يستطيع نزع طبقة الحزن هذه التي كَسَت بشرتها ونُقِشَت بمُقلتَيها وامتزجَت برائحتها،

ـ مُلك . .

ـ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، صدق الله العظيم، نعم يا يوسف . .

أخرج من جيبه عقد من السعف المجدول والصَدَف يتوسطه نجمة بحر صغيرة كان قد عكف على تجفيفها وتهذيب أشواكها منذ أيام، ثم قال وهو لا يزال واقفًا على باب الكهف: كل سنة وانتي طيبة . .

تسمرت مُلك للحظات وهي تنظر للعقد، ثم تسمر نظرها في عينه للحظات أخرى، بعدها قالت في شجن ممزوج بالامتنان: وانت طيب يا يوسف، شكراً إنك مانستش عيد ميلادي . .

ـ مع إنك نسيتي عيد ميلادي اللي فات . .

ـ مانسيتهوش والله، بس . . .

ـ عارف، يلا؟ . .

ـ يلا ايه؟ ! . .

ـ ناكل، أنا محضر الأكل فوق الجبل .

أخذها وصعدا التل ثم جلسا مولِّين وجهيهما صوب المحيط، وأثناء تناول الطعام حاول فتح الحديث ولكن الكلمات كانت تهرب من على شفتيه وكأنه سيبتلعهم لا سيخرجهم، ثم لاحظ انكماشها

نتيجة برودة الجو، فاقترب منها في جلسته وقال: كنتي بتقري ايه في الكهف؟ . .

ـ دي سورة يوسف . .

فابتسم واستلقى متكئًا على كوعه ونظر إلى السماء ثم قال: تعرفي، طول عمري من وأنا صغير ببص في السما واقعد اقول معقولة الكون الواسع ده مافيهوش حد غيرنا زي ما كانوا بيعلمونا في المدرسة؟!، ماكنتش مقتنع، كنت مهتم بالفضاء من صغري، وأنا صغير لما كان حد بيسألني نفسك تطلع ايه كنت بقول لهم رائد فضاء، عشان اشوف الناس اللي عايشين على الكواكب التانية، ولما كانوا بيضحكوا على اللي بقوله كنت بتضايق أوي، واقعد اقرا في الكتب اللي بتتكلم عن الكائنات الفضائية واشوف صورهم وأنا مقتنع إنها حقيقية . .

ـ ولما كبرت؟ . .

ـ لما كبرت ابتديت اشك، اشك بقى في كل حاجة، من يوم ما عرفت وأنا في إعدادي إن الفلك في مصر بيدرس أبراج من بتاعتك بدل الكواكب والنجوم وأنا جالي إحباط وبطلت أحلم أكون رائد فضاء . . .

ابتسمت مُلك ولم ترد، فاستطرد قائلًا: بس تعرفي، من يوم ما وقعنا في الجزيرة دي وأنا ابتديت أؤمن تاني بوجود الكائنات الفضائية، تخيلي احنا في جزيرة ضمن أرخبيل متكون من عشرين ألف جزيرة

ومش عارفين يلاقونا واقتنعوا إننا خلاص مابقيناش موجودين، ما بالك بقى بكوكبنا اللي واقع ضمن ٩ كواكب أو ١٠ لو اعتبرنا حزام الكويكبات الواقع بين المريخ والمشتري بيمثل كوكب منفجر، وده في مجرة ضمن ملايين المجرات فيها مليارات الكواكب. .

ـ وإيش عرفك إن الأرخبيل ده متكون من عشرين ألف جزيرة؟! . .

ـ انتي ناسية إني بتاع جغرافيا زي ما انتي بتاعة تاريخ ولا ايه يا دكتورة؟. .

ـ اه، طب بالمناسبة هما ١١ كوكب وفقًا لتفسير القرآن مش ٩ أو ١٠ بس. .

ـ طيب يعني حتى استكشاف العلماء لمجرتنا لحد دلوقتي طلع ناقص، ازاي بقى نقدر نجزم بكل بساطة كده إن مافيش كائنات غيرنا في مكان ما ولو على أطراف الكون!! . .

صمتت فاستطرد: ساعات بحس إني ممل أوي لما اتكلم مع حد في موضوع هو مش مهتم بيه، بس يمكن عشان بكون مؤمن باللي بقوله فمابحسش إنه حاجة مملة وبسرح في الرغي. .

ـ لأ بالعكس مش ممل خالص، أنا بس مابشغلش بالي عادةً بالموضوع ده، سواء عرفنا فيه كائنات غيرنا أو لأ كفاية إننا عارفين إننا موجودين. .

- بس مش شايفة إننا بقينا شبههم؟ . .

- مش فاهمة! . .

- يعني لو هتكلم عننا كيوسف ومُلك احنا محتاجين الناس يلاقونا عشان نرجع بلدنا وبنعتبر فقدان أملهم في إنهم يلاقونا نوع من الأنانية والكسل، قد يكونوا الكائنات دي كمان محتاجيننا نلاقيهم عشان نساعدهم بشكل أو بآخر، وساعتها منطقك ده هيكون نوع من الأنانية والكسل تجاههم . .

- وممكن يكونوا مش محتاجيننا ومحاولات بحثنا عنهم تسببلهم متاعب وقلق . .

- كده بقينا شبههم برضه بس بشكل تاني، يعني لو أنا وانتي اعتبرنا نفسنا كائنات فضائية عايشين على كوكب الجزيرة دي هنعيش هنا بسلام من غير ما نستنى حد يلاقينا ويفسد علينا أمننا وحياتنا . .

فطنت مُلك لمقصده فأشاحت بوجهها للحظات، ولكنه رأى دمعة تنزلق على وجنتها فأمسك بيدها فلم تقاومه، حينها ربّت على يدها في شدة ثم تركها ونزل التل، وأشعل النيران في جريد قد وضعه مسبقًا على الشاطئ على شكل كلمة "تتجوزيني؟"، وحين رأته مُلك أدارت له ظهرها وجَثَت على ركبتيها وهي تجهش بالبكاء، فصعد يوسف التل واحتضنها ثم قال: أنا بحبك يا مُلك . .

فصرخت فيه قائلة: ما انت عارف إن أنا كمان بحبك، بس حرام يا يوسف حرام. .

- أنا عارف إنه حرام، ديني كمان بيقول حرام زي دينك بالظبط، بس بصي لحالنا، هنفضل كده لحد امتى؟، مُلك احنا مالناش هنا غير بعض، وماعتقدش إننا هنرجع، اكيد ربنا ليه حكمة في اللي حصل لنا ده، مش معقول يكون عمل كده عشان يعاقبنا. .
- انهي رب فيهم، ربي ولا ربك؟. .
- ربي وربك واحد. .
- لأ مش واحد، أنا ماقدرش اقول لبشر زيي انت إلهي، ماقدرش اركع قدام صليب، ازاي هطلب منه الجنة وأنا من جوايا مسلمة وعارفة إني هخش النار لو عملت كده؟!. .
- وأنا ماطلبتش منك تتنصّري. .
- وانت اقتنعت بإنك تبقى مسلم؟!. .
- ماقصدش كده برضه. .
- أومال تقصد ايه يا يوسف؟. .
- أنا اقصد إني بحبك وعايزك زي ما انتي، دينك مابكرهوش بالعكس حبيته بسببك وفهمته منك، ومتقبّلك بيه. .
- اللي بتطلبه ده زِنا يا يوسف، وأنا ماقدرش ابقى زانية.

جَرَت دموعها مع جملتها الأخيرة، فتركها يوسف وعاد إلى الكهف. . وجلس يبكي وحيداً؛ بكى كوليد قُطِعَ حبله السُرّي لتوّه، بكى كما لم يبك من قبل، بكى لاندفاعها من شدة الحب، ولعجزه أمام حبه لها، بكى لأنه كان يعلم أنه سيدمرها، لهذا القدر من الأنانية وهذا الكم من الغباء. . ومع ذلك استمر، لم يستطع التوقف عن حبها، وحين دُمِّرَت لم يجد بالقواميس ما يرثيها به، ولم يجد بالنواميس ما يعاقب به نفسه. . فآثَرَ البكاء، وبعد دقائق من الشرود ـ لم يعدّها ـ نزل إلى الغابة وحفر أسفل نخلة يعرفها، وأخرج علبة سجائره التي دفنها منذ أكثر من عام ونصف، وأشعل سيجارته الأخيرة!.

* * *

القاهرة، يناير مطلع العام ٢٠٠٢

تخرّجت ريموندا من الجامعة منذ ستة أشهر، والتحقت بالعمل في وزارة الخارجية عقب تخرجها مباشرة بواسطة كبيرة من خلال صديق لوالدها، ولكن طبيعتها الحازمة وشخصيتها القوية ساعداها على التميز ولفت أنظار مديريها وزملائها. في السابق كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها لأنها ـ كما كانت تقول دومًا ـ لن تتزوج إلا بعدما يعود يوسف، ولكنها مع الوقت بدأت تستوعب شيئًا فشيء أن يوسف قد

مات بالفعل، وحينها بدأت ترفض المتقدمين لخطبتها لأن لا أحد منهم يشبهه، فرغم جمالها لم تكن بالشخصية التي تغلب عليها العاطفة قدر غلبة العقل، حتى أيام الجامعة لم تلتفت للمشاعر العابرة قدر التفاتها لدراستها وخدمتها الكنسيّة.

كانت تعيش حياة رتيبة لكنها مستقرة، وحرصت مؤخراً على زيارة قبر أخيها أسبوعيًا، والذي دفنوا به صندوقًا خشبيًا يحوي أفضل حاجياته وأقربها إلى قلبه، فضلًا عن هدايا أهداها لأصدقائه وأقاربه؛ فكل من كان يعرف يوسف وحضر الدفن ـ سواء مسيحي أم مسلم ـ وضع بالتابوت شيئًا.. إلا هي، فهي لم تحضر الدفن من الأساس، فاستعوضت عن ذلك بزيارة قبره بصفة دوريه علّ ذلك يشفع لها عنده، واستمرت حياتها على ذلك المنوال حتى قابلت "مينا"، أو على تعبير أدق حتى قابلها مينا، فهو زميلها بالعمل وقد أعجب بها منذ أول يوم دخلت فيه الوزارة، ولكنها لم تكن تلاحظه، ومع الوقت حاول لفت انتباهها حتى شعرت هي بذلك، ولأنه يتمتع بشيء من المرح ونظرة حنون فيها شيء من نظرة يوسف حاولت الاستسلام للإعجاب به.. وقد حدث.. ولكن بعد شهور طويلة استوعبها هو ولم يكن عجولًا، ما زاده في نظرها رجولة وشهامة، وبالفعل تمت خِطبتهما في ذكرى ميلادها بالفاتح من يناير ٢٠٠٢.

***

الأرخبيل، يناير مطلع العام ٢٠٠٢

لم تكن الأشهر الثلاثة الماضية أفضل حالًا من التسعة السابقين لهم، بل على الأرجح أسوأ بعض الشيء، فقد كانت فترة صعبة حقًا عليهما وعلى كافة المستويات. . حتى المستوى الجنسي، فكثيراً ما كان يستيقظ ليجد نفسه محتلمًا، وأحيانًا كانت تحدث له أكثر من ثلاث مرات في أسبوع واحد، حتى هي عانت اضطرابًا في الهرمونات أخّر لها الدورة الشهرية لبضعة أيام في شهرين متتاليين، وكثيراً ما كان يراها في أحلامه تبكي، حتى يستيقظ بالفعل على صوت بكائها، كان يشعر بالعجز الشديد في تلك اللحظات، والفشل أيضًا، ربما نجح في حمايتها من صعوبة المعيشة على هذه الجزيرة القاسية، ولكنه بالتأكيد فشل في حمايتها من نفسه، ومن بؤس مصيرهما المحتوم، لدرجة أنه شعر لأول مرة بحنين حقيقي للعودة إلى بلاده بعد أن كان قد رتّب أحلامه على العيش مع مُلك حتى القضاء بين ذراعيها، وبعد شهور من الصمت المدقع قرر أن يعتذر لها عن كل ما سببه لها من ألم،

- صباح الخير يا مُلك. .
- صباح النور يا يوسف. .
- أنا عارف إن بقالنا كتير ماتكلمناش سوا لحد ما نسينا الكلام تقريبًا، بس كنت عايز اقول لك . . . ، أنا آسف يا مُلك، آسف على كل حاجة وحشة حسيتيها، آسف حتى على وقوع الطيارة وإني لسه

عايش، أنا ماكنتش اقصد اضايقك أو احطك في الوضع ده، كل اللي كنت عايزُه إنك تحسي بالأمان في المكان المخيف السخيف ده، فكرت للحظات إن الأمان ده ممكن تحسيه فعلًا باللي طلبته، بس بعد وقت طويل من التفكير أدركت فعلًا إن اللي طلبته مخيف أكتر من أي حاجة تانية، ماتزعليش مني، انتي عارفة انتي عندي ايه . .

ـ مش زعلانة منك يا يوسف، أنا بقيت كويسة . .

ـ طب ممكن تنسي كل حاجة قُلتها قبل كده ونرجع نتعامل سوا زي الأول؟ . .

ـ ماتقلقش .

قالتها مُلك في ابتسامة شاجنة كي تطمئنه، لكنها من الداخل كانت في قمة القلق، فكلمات يوسف ليلة عيد ميلادها كان يتردد صداها في أذنيها وبين أرجاء الكهف ويراودها في أحلامها طيلة الأشهر الماضية، حتى ظنت لأحيان أنها إشارة لها بالقبول، لكنها كانت تحاول طرد الفكرة من رأسها .

بعد حديثهما الأخير واعتذاره لها عادت الأمور بينهما تدريجيًّا إلى سابق عهدها؛ صيد ولعب ولهو وسهر ومشاركة جُلّ ما اعتادا مشاركته سويًا، وكان يوسف ملتزمًا بعهده لها بألّا يحاول فتح موضوع الزواج مجددًا أو حتى التلميح به ـ حتى وإن كان الأمل لا يزال مدفونًا بركنٍ ما في قلبهـ أما هي فقد خانت العهد بينها وبين نفسها، بل إن

العهد نفسه قد خانها! ، فقد شعرت مع الوقت بأنها تفقد قواها شيئًا فشيء حتى تشارف على الخوار تمامًا أمامه في بعض الأحيان، فاعترفت لنفسها بأنها تحبه حد التعب، وبأن ذلك الحب أقوى بكثير من محاولات القضاء على هذه الجزيرة المفقودة دون أن تذُق حلاوة حضنه ولو لمرة واحدة، وبأنها أضعف من ذلك كله! ، فوجدت نفسها تغيّر خط سير خطتها إلى الخطة البديلة، وهي استثارة مشاعره حد التسليم، حتى يعترف هو الآخر لنفسه بما اعترفت به، ويصل إلى التفكير في إشهار إسلامه، حتى وإن لم يقتنع به! .

* * *

الأرخبيل، منتصف يونيو ٢٠٠٢

لم تكن مُلك من نوعية الفتيات التي تجيد استخدام ذكائها وأنوثتها للإيقاع برجُل، ولكن الظروف حملتها على المحاولة على الأقل، وبالفعل على مدار أكثر من خمسة أشهر كانت تسير خطتها كما رسمتها تمامًا، منتهجة أسلوب الشد والجذب النسائي القادر على الإيقاع بأعتى شمشون عاشق على يد أصغر دليلة مدلّلة، حتى أجبرته على نقض العهد في أقوى لحظات ضعفه أمامها! . كانت ليلة صافية من ليالي يونيو العليلة، قضياها في الحديث وهما يفترشان رمال الشاطئ أسفل القبة المعتمة ذات النقاط الوامضة، وكانت أول مرة

يسمع فيها صوتها الطروب يغنّي له: دي ليلة حب حلوة.. بألف ليلة وليلة.. ألف ليلة وليلة.. ألف ليلة وليلة بكل العمر.. هو العمر ايه غير ليلة.. زي الليلة زي الليلة الليلة.. زي الليلة..

- عظمة على عظمة على عظمة يا ست..
- ست في عينك، مبسوط يا يوسف؟..
- ازاي ماكونش مبسوط والمليكة بتغنيلي؟..
- مليكة؟!..
- طبعًا أحلى مليكة في الدنيا، بيها ملكت مُلك الدنيا كله...

ثم أمسك بيدها وقال: مُلك.. أنا بحبك.. بحبك أوي..

- ياه يا يوسف، كنت فاكرة إني عمري ما هسمعها تاني..
- مش هبطّل أقولها تاني..
- أنا كمان بحبك يا يوسف، عمري ما حسيت للحظة طول الفترة دي إني بطلت أحبك..
- من النهارده مش هخليكي تفكري تنسيها أصلًا..
- بس أنا خايفة يا يوسف..
- ماتقلقيش..
- مش بكلمة هبطّل أخاف..

احتضنها ثم قال: مش بكلمة.. بفعل، يلا نتجوز يا مُلك..

ـ خايفة يا يوسف، خايفة أوي . .

ـ ماتخافيش انتي في حضني . . ومش هسيبك تخرجي منه تاني أبدًا . .

ـ ما هو الحضن ده اللي مخوفني، ومش لاقية في البعد عنه حل ! . .

ـ والحل؟ . .

ـ انت عارف الحل يا يوسف . .

تردد قليلًا قبل أن يرد: انتي عارفة تفكيري ناحية الموضوع ده . .

انسحبت من حضنه ثم قالت: خلاص مافيش مشكلة، متاخدش في بالك . .

ـ مشكلة ايه؟ ! ، أنا مش قُلتلك قبل كده أنا بفكر ازاي؟ . .

ـ خلاص أوكيه، أنا مش بضغط عليك . .

ـ انتي عارفة إن الموضوع أكبر من كده بكتير وعارفة إني بتمنى أكون معاكي، بس عمري ما هعمل كده عشانك، انتي نفسك مش هتقبلي ده . .

ـ عمرك ما هتعمل ده عشاني ! ! . .

ـ قصدي مش هعمله عن غير اقتناع . .

ـ خلاص يا يوسف، كانت مجرد فكرة مش أكتر، حل للي احنا فيه . . .

ـ مُلك . . .

ـ للتعب اللي احنا فيه، للموت اللي عايشينه ! . .

ـ مُلك الحل موجود بس انتي اللي مش عايزاه . .

ـ واللي هو ايه بقى الحل اللي مش عاوزاه؟ ! . .

ـ اللي هو فيه مليون مسيحي ومسلمة متجوزين جواز مدني يا مُلك، مش هنكون أول ولا آخر اتنين يعملوا كده يعني ! . .

ـ لأ طبعًا مافيش الكلام ده . .

ـ لأ طبعا فيه في بلاد كتير، بس انتي اللي مش عايزة تقتنعي . .

ـ بس أنا لما فكرت في الحل ده ماقُلتلكش ننسى ربنا ونعمل حاجة حرام يا يوسف، ونجيب عيال مشتتة مش عارفالها دين ولا ملّة . .

ـ ومش حرام انطق الشهادة وأنا مش مؤمن بيها؟، كده مش هيبقى زنا في نظرك؟؟ . .

ـ طالما صعب عليك الحل خلاص . .

ـ حتى لو ده هو الحل مش بالسهولة دي يتنفذ . .

ـ وأنا مابقتش عاوزة الحل ده خلاص . .

ـ مُلك أنا بقالي سنتين بدوّر على حل . .

ـ ووصلت لحل غير حلي؟ ! . .

ـ ماوصلتش لحل غير حلي . .

ـ وطالما ماوصلتش لحل راجع تقول لي بحبك ليه؟، حرام عليك كنت سيبني في حالي يا أخي، أنا كنت مرتاحة وأنا خرسة أكتر من الوجع اللي أنا فيه ده، أنا تعبت.. يا رب بقى تعبت..

أجهشت بالبكاء فاحتضنها برفق ثم قال: اهدي يا مُلك، صدقيني أنا بقول كده عشان عارف إننا مش هنقدر نفضل بعاد عن بعض أكتر من كده، أنا بحبك اكتر من نفسي..

ـ وأنا كمان بحبك ومش قادرة أبعد عنك اكتر من كده، يا رب..

ـ سيبيها على ربنا.. قادر يحلها من عنده.

* * *

الأرخبيل، مساء الخميس ٢٠ يونيو ٢٠٠٢

بحلول ليلة عيد ميلاده كان قد مر على حديثهما الأخير قرابة أسبوع، تخلت خلاله مُلك عن المقاومة، فقد أيقنت أنها لن تستطيع إثناءه عن موقفه، واحترمت عدم محاولته استمالتها لدينه، ولكنها لم تستطع أيضًا الموافقة على مطلبه، ففعلت آخر ما طلبه منها في تلك الليلة قبل أن ينهكها البكاء وتنام، تركت الأمر برمّته على الله، ثم على قوة كلمة "بحبك".

في هذه الليلة كانت تتمتع مُلك بجمال مشوب بالشجن، ما أضفى على ملامحها شيئًا جديدًا وغريبًا لكنه مثير في الوقت نفسه، رغم ذلك

كان الاحتفال بعيد ميلاده أفضل وأجمل من سابقه في ليلة عيد ميلاده منذ عامين، فقد قضياه في الغناء والرقص الرومانسي وتغزُّل يوسف في بياض بشرتها وخضرة عينيها وشقرة شعرها وجمال روحها، وأثناء ثمالة العشق انتهز يوسف الفرصة وسألها: بتحبيني يا مُلك؟..

- عشقتك يا يوسف..
- ألَم يحِن الوقت بَعد؟..
- مش عارفة، بس حاسة إني لسه مش مستعدة..
- خدي وقتك، أنا مش طالب أي حاجة غير إني اشوف الابتسامة والراحة دول دايمًا على وشك، ومافيش حاجة تعكرهم أبدًا..
- بحبك..
- بحبك يا مليكة روحي.

***

القاهرة، مساء الأحد ٢٣ يونيو ٢٠٠٢

بعد أن انتهت من صلاتها أمام الصليب، وصلاتها ليوسف أن يذكرها أمام عرش النعمة، ارتدت فستان زفافها الأبيض المكشوف، واستعدت للخروج لزوجها الذي ذُهل عندما رآها فيه للمرة الأولى؛ فقد اعتاد مينا دائمًا رؤية ريموندا الطَفلة، اللهم إلا أنها كبرت بضع

سنوات خلال هذه السنة الأخيرة منذ رآها أول مرة، رغم ذلك كانت لا تزال تحتفظ بملامح طفولية، أما في ليلة زفافها فكانت تبدو بهذا التاج الكريستالي وفي ذلك الفستان المثير سيدة مكتملة الأنوثة، وكأنها دوقة من نور على إحدى دوقيات أوروبا في عصور ظلامها.

في المساء احتشد أهل وأصدقاء العروسين أمام مذبح كنيسة مارمرقس بالمعادي لحضور صلاة الإكليل، التي افتتحها الكاهن بلحن ابؤرو وألحان فرايحي، ثم الصلاة الربّانية، ثم أعلن باسم الرب يسوع المسيح المخلّص ملك الملوك ورب الأرباب مشرّع شريعة الكمال وواضع ناموس الأفضال عقد زواج الابنة المباركة الأرثوذُكسية البكر "ريموندا يحيى غبريال" إلى الابن الأرثوذُكسي البكر "مينا بطرس لبيب" ثلاث مرات وهو يرشم بالصليب، ثم تلى ذلك ببعض الصلوات المختلطة روحانياتُها بروائح البخور المختار، قبل أن يضع الأكاليل على رأسي العروسين ويُلبسهما البُرنُس والدبلتين، إلى آخره من طقوس الطلبات، وتلاوة القراءات، وباقي الصلوات، مروراً بدَهن جسدَيّ العروسين بالزيت ـ أو على الأحرى دهن جسدهما باعتبارهما جسد واحدـ، حتى صلاته أن يباركهما الرب كما بارك سارة لإبراهيم وبارك لإسحاق في رفقة وليعقوب في زوجه وهما ساجدان أمام الهيكل المقدّس، قبل أن يسلِّم ريموندا لمينا ليربطهما باسم الآب والابنَ والروح القُدُس رباطٌ مقدَّس إلى أبد الآبدين.

* * *

الأرخبيل، مساء الجمعة ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢

في هذه المرة حرص تمامًا ألّا تتوقع مفاجأة الاحتفال بعيد ميلادها، فهذه المرة يوسف يحتفل بعيد ميلاد حبيبته وزوجته المستقبلية ـ كما يتمنى ـ لذلك أقامه قبل ليلة عيد ميلادها بليلة، منتهزًا مشهد اكتمال البدر في الخلفية.

كانت تشبهه تمامًا ـ أقصد البدر ـ وربما كانت تفوقه جمالًا حين دخل يوسف عليها الكهف وأيقظها من النوم ووضع يده على عينيها وصعد بها التل، ثم أخذ يسحب يده ببطء حتى بدأت السماء تنير شيئًا فشيء، ففتحت مُلك عينيها لترى مشهدًا لم ترَهُ من قبل، إنه القمر العملاق، وكان حجمه هائلًا وكأنه أبو ذلك الرضيع الذي يظهر في سماء القاهرة!،

ـ كل سنة وانتي أجمل من القمر..

ـ ايه الجمال ده!!، أنا أول مرة اشوفه بالحجم ده على الحقيقة، سبحان الخالق..

كان يوسف حينها ينظر لعينيها لا للقمر ليسجل ردة فعلها في ذهنه كشريط فيديو، وحينها رد: فعلًا سبحان الخالق..

فخجلت مُلك ثم قالت: بطّل تكسفني، أنا مابعرفش ارد على كلامك ده وبحس إني حمارة أوي..

ـ ماترديش، يكفيني ابتسامتك ونظرة عينيكي دول . .

ـ وبعدين يا يوسف؟ . .

ـ ولا قبلين، وماينفعش يكون فيه بعدين تاني، بكرة الفرح . .

ـ بكرة؟! . .

احتضنته بقوة فقال: لسه خايفة؟ . .

ـ مش عارفة . .

ـ ماتخافيش، أنا بحبك وعمري ما هفكر أعمل حاجة تأذيكي . .

ـ هتطمّنني؟ . .

ـ وأنا لزمتي ايه في الحياة غير إني اطمنك؟؟ . .

ـ بحبك . .

لم يرد، بل مال على شفتيها وقبّلها لأول مرة، قبلة طويلة مرتجفة تعلن عن كل ما عاشاه من صراعات وكل ما جمعاه من قوة لمواجهتها، وكأنهما ينهلان من عين ماء تفجرت أسفل قدميهما في صحراء قَفر سارا فيها تيهًا لثلاث سنوات، وبعد أن ارتويا دفَسَت مُلك وجهها في صدره وقالت: بحبك يا يوسف . .

ـ بحبك يا مُلك يوسف .

....

في صباح اليوم التالي استيقظ يوسف ومُلك غافية بين ذراعيه، قبّلها على وجنتها ففتحت عَينيها على عَينيه،

- صباح الخير يا مولاتي . .

ظلت محدقة في عينيه مبتسمة دون أن تنبس ببنت شفة، فسألها: ايه؟ . .

- أول مرة احس إني مش خايفة من حضنك . .

انفرجت أساريره فقال: وفيه عروسة تخاف من عريسها برضه؟ . .

- امبارح بعد ما انت نمت قمت اتوضيت وصليت صلاة استخارة، دي صلاة بنصليها لما نكون محتارين في حاجة وعاوزين ربنا يرشدنا فيها للصح، وبعدين جيت جنبك ونمت، وحلمت حلم غريب مش واضحة فيه الرسالة بس حسيت اني مرتاحاله، حلمت إني كنت بعوم بالليل ومستمتعة، وفجأة حسيت إني بشرب من البحر وبغرق، وبعدين فجأة لقيت الشمس طلعت وكانت شديدة أوي، والبحر اتحوّل صحرا لقيتني مدفونة فيها لحد دقني، وحسيت إن اللي في بؤي ده رمل مش مياه، بس عافرت لحد ما طلعت من الرملة، وأول ما طلعت لقيت نخلة طويلة أوي فيها ٣ تمرات بس، حاولت أهز النخلة واوقعهم ماعرفتش، بس لما مديت ايدي

طُلتهم، وكانوا نضاف رغم عفرة الجو، ولما أكلتهم ضيعوا طعم الرمل والملح من بؤي . .

- وبعدين . .

- وبعدها انت صحيتني دلوقتي وحاسة إني مطمنة، بس قبل كده كنت بخاف أوي ربنا مايباركش اللي هنعمله ده ومايكونش راضي عنه . .

- بس أنا حاسس إنه راضي ومبارك، كفاية الرؤية دي وإحساسك بالأمان في حضني، ده في حد ذاته في رأيي إشارة من ربنا . .

- بس ازاي هنخلف ولاد يعيشوا البؤس اللي عشناه ده؟، الحياة هنا مش سهلة، وازاي هنسيبهم يعيشوا الحياة دي لحد ما يموتوا على الجزيرة دي؟، على الأقل أنا وانت لينا بعض إنما هما هيبقالهم مين؟! . .

- ومين قال إننا لازم نخلف؟ . .

- ازاي من غير وسايل؟! . .

- وهما الناس كانوا بيوقفوا خلفة ازاي قبل مايخترعوا الوسايل؟ . .

- ازاي؟ . .

- بالمَنع يا دكتورة . .

- اه فهمت، بس ده مش مضمون . .

- ماتخافيش، أنا جنبك دايمًا ومش هعمل أي حاجة تضايقك. .

- أنا مسلّمالك يا يوسف، مابقاش فيا طاقة أقاومك أكتر من كده، بس أرجوك مش عاوزة اخلف ولاد قلبي يتوجع عليهم، كفاية الوجع اللي اتوجعناه. .

- النهارده فرحتنا، ماتخافيش وماتفكريش في أي حاجة غير كده. .

- بس هنتجوز ازاي وأنا معفنة كده؟. .

- يعني أنا اللي شبه خالد النبوي في فيلم المهاجر بشعري ودقني وشنبي اللي داخل جوّه بؤي ده؟. .

ضحكت مُلك ثم قالت: طب ولزومها ايه الجوازة اللي ريحتها وحشة دي؟. .

- أنا عايزك ومش عايز حاجة تانية غيرك، ويا ستي لو عليا مستعد انتفلك شنبي ودقني دول شعراية شعراية. .

- لأ أنا بحب شكلك زي ما انت كده. .

- وأنا بحبك زي ما انتي كده.

....

بحلول المساء كان العروسان قد انتهيا من تحضير نفسيهما لليلة العمر، فقد احتلت مُلك الكهف طاردة يوسف خارجه لتصارع شعر جسمها، أما هو فتسلل إلى الغابة وقضى النهار هناك بعد الاستحمام، ليحاول ـ قدر الإمكان ـ تهذيب لحيته دون جدوى كبيرة، ولكنه على الأقل نجح في ربط شعره بشكل يليق بالليلة.

كانت مُلك في أجمل صورها على الإطلاق، فليالي الحب السابقة أضفت على وجهها بعض من التورُّد والنضرة، ورغم ملابسهما المشارفة على الاهتراء بدا مظهرهما مفرحًا لنظريهما، كما أعجَبَ يوسف كثيراً ذلك التاج الذي صنعته مُلك لنفسها من السعف، لتبدو به كعروس من العصر الإغريقي الساحر المملوء بالشبق، ما زاد من شبقه تجاهها، وبعد رقصة طويلة فوق التل على همهماتهما بلحن موسيقى رومانسية أمسك بيدها ونقل السوار ـ الذي أهدته إياه منذ عامين ـ من يُمناها إلى يسراها، وكذلك فعلت له مُلك الشيء نفسه، ثم نظر يوسف إلى السماء وقال: يا ربَّنا، أُشهدك على زواجي من مُلك، رفيقتي الوحيدة بهذا العالم الخاص بنا، فلتكن مشيئتك وارزقنا مباركتك ورضاك..

ثم قالت مُلك وهي ترتجف: زوجتك نفسي، وليشهد الله أني لا أريد إغضابه، ولكن حكمته ورحمته وسعت كل شيء، فاللهم إن كنا على حق فبارك زواجنا وارضَ عنَّا.

مع جملتها الأخيرة كانت ترتجف بشدة وترتجف معها الكلمات وكأنها خرجت لتوّها من قاع نهر (ألـتـش) الجليدي العظيم!، فاحتضنها يوسف بشدة ثم حملها للكهفَ وأطفأ المشعل ليحد من توتّرها، ثم فرد جسدها على الأرض واستلقى بجانبها وبدأ يقبّلها في حنان حتى هدأت رجفتها ـ التي كانت تدفع شفتيه عن شفتيهاـ بعض الشيء، حينها تسللت يداه في خفة إلى ساقيها لترفعا عنهما الفستان، وحين جردها منه ـلتبقى فقط بقطعتي ملابسها الداخليةـ تشنّجت وشرعت في البكاء، فقد تذكرت حين تشنّج جسدها في المياه وقت رآها يوسف عارية في المحيط عقب سقوطهما على الجزيرة بأيام، فهي خجولة بطبعها لم تعتاد حتى تغيير ملابسها أمام أختها وأمها منذ بلغت الحُلُم، ولكن يوسف احتضنها بشدة وأخذ يقبّل عنقها وهو يردد كلمة "بحبك" مع كل قبلة، وهي ترد ـلا شعوريًاـ بواحدة أمام كل ثلاث أو أربع ترديدات منه، حتى فوجئت بفك حمالة صدرها ويده الأخرى تتحسس مؤخرتها وشفتاه تعتصران حلمة ثديها في حركات متتابعة سريعة لم تسمح لجسدها بإصدار أي محاولة للمقاومة، فقط كل ما صدر عنه كان رجفة ذكّرتها بأول وآخر تجربة استمناء لها.. حين كانت في السادسة عشر من عمرها تداعب مهبلها دون إدراك كامل للنتيجة.. والتي أشعرَتها بالذنب دون إدراك كامل للسبب!، وفي محاولة من يوسف لتهدئتها أمسك بنهديها الصغيرين بين كفيه وأخذ يعتصرهما ببطء وخفة وشفتاه تعتصران شفتيها بقوة، وهي مأخوذة في

حالة من اللاوعي توقفت معها أي مشاعر لذة أو محاولة لمقاومة، وكأنها داخل حلم لا تعرف كيف تخرج منه ولا تريد الخروج منه في نفس الوقت، ولكنها استيقظت حين شعرت بيده تسحب عنها آخر قطعة ببطء، فأمسكت بها معلنة عدم الاستعداد بعد، فربّت على يدها في حنان وقبّلها ثم قال بصوت يشبه الوحي: ماتخافيش.

في تلك اللحظة تذكرت مُلك يوم ختانها، حين دخلت عليها خالتها بالحلوى ـ على غير عادتها ـ وفي بساطة طفلة في التاسعة من عمرها لم تفكر في غرابة الأمر بل فرحت بالحلوى، ولكن فرحتها لم تدُم إلا لدقائق حتى دخلت الغرفة ابنة خالتها الكبيرة ومعها سيدة جامدة الملامح تمسك بيدها أدوات معدنية، فانتابها الذعر حين أمسكت الخالة وابنتها بيديها وساقيها، وشرعت هذه السيدة الجامدة في المباعدة بين ساقيها وهي ترفع عنها الفستان وتسحب لباسها الداخلي في شيء من العنف قائلة: ماتخافيش.

كل ذلك مَرّ على ذاكرتها في لحظات معدودة، حتى انتبهت لقبلات يوسف التي أخذ يطبعها على كل جزء في جسدها، وقلادته الذهبية تلامس جسمها صعودا وهبوطا وكأنها تشق جلدها، حتى باعَد يوسف بين ساقيها، ورغم الظلمة الحالكة شعرت مُلك بانتهاك شديد لتلك الوضعية لا يقل عن انتهاك خاتنتها لبراءة طفولتها، ولكنها أرادته داخلها في أسرع وقت حتى تنتهي، ففي تلك اللحظات كانت تدرك تمامًا أنه لا سبيل للعودة.. وإنما المُضيّ!، ولكن مع

اقتراب أنفاسه من فرجها ارتعشت وشعرت بشعور غريب ليس له في قاموس إدراكها وصف، وكأنه شعور من عالم آخر، ربما يوجد مثيل له في الجنة.. وربما في النار.. وربما هو مزيج من كلاهما في برزخ وهمي!، وفجأة شعرت بقُبلة لاعقة لفرجها لسعتها ونفضتها من مكانها وهبدتها وهي تشهق، ثم سمعت صوت يوسف الخفيض يتسلل إلى أذنيها ساريًا عبر جسدها كله ـ وكأنها تسمعه من فرجها ـ يردد فيما يشبه الترتيل: الأوِّلة شُكر..

ثم قبلة فنفضة ثم ترتيل: والتانية تقديس..
ثم قبلة فنفضة فشهقة ثم ترتيل: والتالتة تقدير..
ثم قبلة فنفضة فشهقة فهبدة ثم ترتيل: والرابعة عِرفان.

ثم شعرت بقضيبه يقتحمها دفعة واحدة، فشهقت شهقة عظيمة تردد صداها بأرجاء الكهف والجزيرة، فقد أحسّت ـ مع نزيف بكارتها ـ وكأنها كانت موثوقة وقد حُلّ وثاقها، وحينها مر ببالها صور كل من تحب وعلى وجوههم تعبيرات ليست مفسرة، فقد رأت والدها ينظر لها نظرة جامدة غير قاسية ولكنها لا تخلو من لَوم، ورأت أمها تبكي وكأنها ترثي حالها وترثيها، ورأت مريم تنظر داخل عينيها بنظرات ثاقبة وكأنها تريد دفن لَومها بأعماق مُلك، ورأت أحد أقرب شيوخ الدين إلى قلبها يتمتم في عصبية وكأنه يستغفر لها، أما مالك فرأته ينظر باتجاه آخر وكأنه يتحاشى النظر إلى وجهها، ثم انتبهت من شرودها لمضاجعة يوسف لها

ببطء خوفًا من أن تنفر، ولكنها على العكس كانت تشعر وكأنها تُذبَح بسكين بارد، فما هي إلا ثوان من المضاجعة هادئة الرتم حتى جذبته إليها بقوة ـفمن شروط الذبح أن يكون نصل السكين حَادًا رحمةً للذبيحة!ـ وأخذت تتحرك معه بعنف مجسِّدة رقصة الطير المذبوح، وظَلّا على هذه الوضعية لبضع دقائق، وهي تذرف من الدموع أنهارًا وكأن عينيها استحالتا عينيّ ماء ساخن تفجّرا بوجهها، وحينها شرع يوسف هو الآخر في ذرف الدموع وسط المضاجعة لإحساسه بما تشعر به مُلك، حتى أفرغا شهوتيهما معًا واختلط سائله بسائلها، فاختلطت أصوات التأوُّه بالنحيب.. ورعشة النشوة برجفة الوَجَع!.

* * *

القاهرة، الأحد ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢

في المدرسة كان يتحاشاه أقرانه لما يُعرف عنه من عدوانية مفرطة، فبالرغم من كونه لا يزال طفلًا بالصف الرابع الابتدائي كان مثار قلق للتلاميذ والمدرسين بل وأهله أيضًا، وكانت أخطاره تتمثل فقط في الاعتداء على زملائه بالضرب حين يحاول أحدهم مضايقته، حتى ذلك اليوم الأغبر الذي خطف فيه أحدهم قلمًا من أمامه ـ وهو طفل جديد على الفصل لا يعرفه ـ فانتفض مالك ـوكأن الولد سرق منه نور عينيهـ وانتزع من يده القلم وغرزه بعينه اليمنى ففقأها، وحينها لم

يقتصر الأمر على طلب ولي أمر مالك كالعادة، بل احتجزه مدير المدرسة بغرفته واستدعى الدكتور سليمان الذي حضر ليجد الشرطة موجودة بالمدرسة لاصحطابه ومالك للتحقيق، وعلم حينها أن الولد المجني عليه قد فقد نور عينه اليمنى تمامًا وتطلب الأمر عملية جراحية خطرة، ولسوء الحظ كان أهل الولد من سَفلَة القوم بمنطقة أكثر من شعبية تقع فوق تلٍّ على أطراف السيدة زينَب، وأصروا على سَجن مالك كطفل أحداث أو فقء عينه قائلين: "العين بالعين"!، لولا مكانة وسمعة الدكتور سليمان التي أوصلت الأمر بالكاد إلى رفد مالك من المدرسة وإخضاعه جبرًا بقوة القانون للعلاج النفسي، فضلًا عن دفع الدكتور تعويضًا ماليًّا ـليس بهيّنـ لأسرة الولد المعتدى عليه وتكفّله كذلك بمصاريف العملية والعلاج، وقبل انتهاء الترم بقليل قام الدكتور سليمان بنقل أوراق مالك من مدرسته الحكومية إلى مدرسة خاصة، والتي قبلته بشرط إمضاء الدكتور سليمان تعهدًا على نفسه بعدم تعرض مالك لأحد، مع وضع الولد تحت الملاحظة.

* * *

الأرخبيل، الأحد ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢

استيقظت مُلك قرب العصر مذعورة إثر كابوس مخيف بالنسبة لها، كان يشبه ما رأته ببالها من صور لأهلها الليلة الماضية ولكن كانت

وجوههم أكثر عدوانية تجاهها، فقد رأت أمها تصفعها على وجهها صفعة تشبه تمامًا التي وجهتها لها حين رأتها تضحك لابن الجيران بالشرفة وهي في الإعدادية، ورأت مريم تبصق في وجهها وكأنها عدوّتها وليست أختها الكبيرة التي تحترمها دومًا، ورأت شيخها يدعو عليها أمام الكعبة أن يخسف الله الأرض بها وبأمثالها، ورأت مالك ينظر لها نظرة سخط ـ لا تتوافق مع ملامحه وسنه الصغيرة ـ كادت أن تحرقها، وأخيرًا رأت والدها يدفع يدها التي تشبثت بذراعه بقوة لتهوى من فوق تلٍ عالٍ يشبه تل الجزيرة، فاستيقظت وهي تصرخ قبل أن ترتطم بالأرضً لتجًد نفسها عارية بين أحضان يوسف العاري أيضًا، وفي لمح البصر قبل أن يستيقظ يوسف ويلملم نفسه على إثر الخضة ارتدت فستانها وانزوَت برُكنٍ ما في الكهف وأجهشت بالبكاء، حاول يوسف احتضانها ولكنها انكمًشت أكثر وصرخت فيه أن يبتعد عنها في تلك الساعة الكاحلة، فتركها محاولًا تفهّم الأمر وتحمّله وخرج للاستحمام ثم عاد بعد نصف ساعة وتحدث إليها برفق، فروَت له ما رأته في كابوسها بلهجة المذنبة التي تستحق العقاب، وبعد حديث طويل من قبَله حول أن ذلك الشعور طبيعي في الأيام الأولى، حاولت أن تصدقه وَتطرد الأمر من رأسها، ولكنه ظل مسيطرًا عليها لأيام. . حتى اختفى تدريجيًا.

....

كانت معاملته الحسنة لها ومراعاته لأحاسيسها وطبيعة شعورها تجبرها على مبادلته بالحُسنى، فقد أدركت أنه لا فائدة الآن من البكاء على اللبن المسكوب ـ إن عدَّته مسكوبًا من الأساس ـ وإنما تحمل نتيجة ما اختارته بإرادتها بعد كل تلك المعاناة التي استمرت لما يقرب من ثلاث سنوات، فحاولت أن تكون له خير زوجة وسند بدلًا من أن تقلب حياتهما لجحيم أكبر بكثير من عالمهما الصغير الذي تمحور بالكامل حولهما فقط.

لكن الشقاء والصراع والمعاناة كانوا أصدقاءهما الأزليين وكأنهم من مكونات الهواء والماء والرمال على تلك الجزيرة غريبة التكوين، لا يتركونهما في هناء أكثر من أيام أو شهور معدودات على أقصى تقدير، وكأنهم يتّبعون معهما استراتيجية النقاهة تأهيلًا لتحمّل الشقاء الجديد؛ فبعد أربعة أشهر فقط من الزواج وتحديدًا في أوائل يناير ٢٠٠٣ نشب شجار بين مُلك ويوسف حول ما إن كان أنزل ماءه برحمها أم لا بالليلة السابقة، واشتعل الشجار حين رد باستخفاف: مش فاكر..

ـ يعني ايه مش فاكر؟!!..

ـ يعني مش متأكد يا مُلك بس اعتقد لأ..

ـ هي دي فيها اعتقد؟؟، ازاي يعني ماحستش بنفسك!..

ـ مابحسش بنفسي وأنا معاكي يا حبيبتي..

ـ انت بتهزّر؟! ، انت فاهم ده معناه ايه؟ . .

ـ مُلك ماتكبريش الموضوع أكيد ماحصلش حاجة . .

ـ يا برودك يا أخي، انت ازاي مش حاسس بالمصيبة اللي هتحصل؟ . .

ـ كل اللي فاكرُه إني لِحقت نفسي، يعني ماعتقدش إن فيه حاجة لِحقت تنزل جُوّه . .

ـ مافيش حاجة اسمها لحقت ومالحقتش، ومش ده اللي اتفقنا عليه يا يوسف! . .

ـ مُلك . . .

ـ بلا مُلك بلا زفت بقى سيبني في اللي أنا فيه، ومن النهارده يا يوسف لا تلمسني ولا تقرب مني لحد ما نتأكد .

وبعد أسابيع انقطعت الدورة الشهرية عن مُلك، وحينها تأكدت مما كانت تخشاه، وحين تأكدا عادت حياتهما لجحيم أكبر من كل ما شهداه منذ وقعا بالجزيرة، وكانت العلاقة بينهما شبه مقطوعة تمامًا طيلة شهر كامل إلا من نظراته المتوسلة لها بالغفران لذنب لم يقصد اقترافه، ونظراتها الجالدة التي تكاد تمزق جلده وأحشاءه قبل روحه، حتى جاء اليوم وقبلت الاستماع له، ودار حديثه عقلانيًّا حول أن لله بالطبع حكمة فيما حدث وأنه لا ذنب لهما فيه، فاقتنعت نصف اقتناع

استحالت معه القطيعة بينهما إلى علاقة والسلام، وظَلّ التوتر بينهما يخف تدريجيًا في علاقة عكسية مع درجة انتفاخ بطنها، وكانت تشعر بأنها حامل في فتاة، فاختار لها يوسف اسم "مليكة" كما يدعو مُلك دائمًا، حتى غلب الشعور بالأمومة والاشتياق لرؤية مولودتها على الشعور بالحزن، فانقلب إلى سرور وتفاؤل في شهورها الأخيرة.. حتى وضعت مولودَيها!.

* * *

القاهرة، الخميس ٢٧ مارس ٢٠٠٣

بعد تسعة أشهر وأيام قليلة من ليلة زواجها وضعت ريموندا مولودها الأول، لم يكن يشبه والدته التي ورثت من الإنجليز شقرة الشعر وزُرقة العينين، ولم يكن يشبه كذلك والده البدين ـ بعض الشيء ـ ذا الشعر الأسود الناعم والبشرة البيضاء الدامية، بل كان يشبه خاله الذي ورث سمرة الصعيد وأهله، فكان "چوزيف" امتدادًا ليوسف، هكذا اختارت له ريموندا اسمه ليذكرها دائما بأخيها "چـو"، ليحيي ذكراه العطرة بالعائلة طيلة حياته.. ويخلدها بعد مماته من خلال حمل ذريته لاسمه، ولم تجد من قِبَل مينا إلا كل ترحيب بالاسم لمعرفته قدر حبهاَ لأخيها الراحل، علَى عكس ما لاقته من ضيق وانزعاج من قِبَل حموَيها، خصوصًا حماها الذي أوصى مينا ـ منذ

كان طفلًا- بأن يسمي مولوده الأول "بطرس" أو حتى "بيتر" -كونه اسمه قديمًا- ليخلد ذكراه، وحينها فقط علمت سر تمني مينا لأن تضع بنتًا لا ولدًا حتى لا يقع في ذلك المأزق مع أهله، ولكنها أصرت على الإبقاء على اسم چوزيف مهما كانت العواقب، فيوسف بالنسبة لها أهم من حماها بطرس وحماتها "ليندا" . . بل أهم من مينا نفسه.

* * *

الأرخبيل، أكتوبر ٢٠٠٣

كان منظر انتفاخ بطنها زائداً عن الطبيعي بعض الشيء، وكانت دائمًا ما تسخر منه وتقول أنها ستضع بنتًا بدينة، لكن لم يخطر ببالها أبداً أنها ستضع توأمًا، أو ربما خطر بعقلها الباطن من قَبل فوآدَ الفكرة قبل أن تصل لعقلها الواعي، فمنذ خرج "آدم" ومليكة إلى الحياة واستحالت فرحة مُلك ويوسف إلى خوف كبير، لم يكن في حسبانهما أن تصبح المصيبة مصيبتان، ولم يفكرا من قبل كيف سيربيان ولداً وبنتًا لا ولن يعرفان عن حياة المجتمع شيئًا، وكيف سيعلمانهما عدم الانجذاب لبعضهما كجنس وجنس آخر عكس فطرتهما في ظل عدم وجود أقران لهما على كوكب الجزيرة هذا!، وكيف سيفكران في النجاة من هلاك جنسهما وقت يتركونهما ويرحلان مع الموت، ارتعدا كثيرا لتلك الفكرة الأخيرة، فحتى وإن استبعداها فهما لم يجربان تربية

ولد وبنت على جزيرة من قبل، والاستبعاد المطلق هنا لا يمثل شيئًا سوى محاكاة لدفن الرؤوس بالرمال بدلًا من التنبه لوقوع المصيبة، أفكار كثيرة قاتلة مرت ببالهما كانت كفيلة بتمزيق روحيهما إلى أشلاء وتدمير علاقتهما بشكل يصعب إصلاحه . . وإنما بالكاد تلصيمه ! .

....

مع الوقت تداركا الصدمة بسبب إيمانهما بالله وثقتهما في أنه ـ جَلَّ وعَلَى ـ له حكمة في ذلك ـكالعادةـ، وبَدَءا في التركيز في تربية آدم ومليكة. كان مجرد رؤية آدم يبتسم وهو رضيع ـبفمه الواسع ونصفي سنتيه اللبنيتين وعينيه الخضراوين رغم سمرة بشرتهـ كفيلة على بعث الأمل في نفسيهما، وكأن مع ابتسامته تشرق الشمس من باطن الأرض السمراء الخصبة فتكسيها خيرًا أخضرَ، كذلك صوت ضحكة مليكة الشقية ـوالتي شبهت أمها في كل شيء إلا لون عينيّ أبيها العسليتَينـ كانت تجعلهما يضحكان لا إراديًا ضحكة توسع المحيط وما فيه، رؤيتهما يبتسمان ويضحكان ويلعبان ويكبران كانت تزيد من عشق يوسف ومُلك لبعضهما البعض وتنسيهما كل ما عانياه من شقاء وصراعات مع الموت والحياة والدين والرب دامت لأربع سنوات منذ سقطا على هذه الجزيرة وحتى سقط آدم ومليكة إلى جوارهما، وكأنهما هدية الله لهما لتعوضهما وتحيل هذه البُقعة المقطوعة عن الكوكب إلى جنة لن يدخلها سواهم، فقد عاشا بالأرخبيل أربع

سنوات عجاف، تلتهم أربع سنوات نعيم، تلتهم سنوات البين بين! ؛ فمنذ لحظة ميلاد آدم ومليكة لم تكن هناك أي مشاكل أو خلافات بينهما على ما يعلماه لهما من سلوكيات، ولكن المشاكل بدأت في البروز حين بلغ الطفلان ربيعهما الرابع، فما حاول يوسف ومُلك الهروب من التفكير فيه طوال تلك السنوات لم يجدا منه بُدًّا الآن، حين بدأ آدم ومليكة في تقليد يوسف ومُلك في حركات صلاتهما، ولم يعرف أي منهما ماذا يفعل حيال ذلك الأمر الصعب، أينهى كل منهما الطفلين عن تقليد صلاة الآخر سراً؟ ، أم يتعمّدان عدم الصلاة أمامهما فيصبحان بلا دين؟ ، أم يصل بهما الأمر حد الجنون باقتسام الأبناء وتديين كل منهما بدين غير الآخر؟! ، أم يتركانهما يقلدان اثنتيهما ويكبران على ذلك وحينها سيقعان بورطة تعدد العقيدة وبالتالي ستنفي كل منهما الأخرى ويصبحان بلا عقيدة من الأساس؟!! ، كان مجرد التفكير في حل للأمر صعبًا حد تمزُّق الرئتين من شدة حبس الأنفاس! ، وأضحى أكثر صعوبة حين بلغ الطفلان عامهما الخامس وبَدَءا في السؤال عن معنى تلك الحركات، وحينها لم يجد يوسف ومُلك مهربًا من ضرورة حسم الأمر، وبعد تفكير طويل مشترك في تلك المعضلة اتفقا على تفهيم الطفلين منذ الصغر معنى اختلاف ديانتيّ أبيهما وأمهما، وتعليمهما أيضًا أصول وتعاليم كل دين، حتى يكبران ويقرر كل منهما لأي دين يميل، ولكن الأمر رغم صعوبته كان شبه محسومًا منذ البداية، فبطبيعة الحال ارتبطت البنت بأبيها أكثر وارتبط

الولد بأمه أكثر، وبالتالي مالت مليكة للمسيحية؛ حيث كانت تحب سماع حكايات أبيها عن الرب يسوع وشفاعات القديسين والتي كان يرويها لها قبل النوم، وكانت تحب دين أمها كذلك ولكنها لم تصاب بالشغف حول حكايات مُلك عنه، أما آدم فمال للإسلام؛ ولم يكن يصدق حكايات أبيه المبنية على ألوهية السيد المسيح منذ حفظ سورة الإخلاص، ولكن أمه علمته حب نبي الله عيسى عليه السلام كما حب رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، وحكت له عن مكانة السيدة العذراء مَريَم في الإسلام وأن لهذا السبب سميت خالته ـالتي يراها بالصورـ مريم، لكن كبر الطفلان وكثيراً ما كانا يسألان أبيهما وأمهما عن سبب اختلاف ديانتيهما، ولمَ لم يعتنقان ديانة واحدة إن كان الديانتان صحيحتان كما يعلمانهَما؟!، ولكن الرد بأن لكل منهما القناعة بأن ديانته على حق مع تفهيمهما أن الأخرى ليست على باطل لم تكن بالحيلة الجيدة لإقناع طفلين بلغا السابعة من عمرهما!.

....

* * *

الأرخبيل، أكتوبر ٢٠١٠

رغم صغر سن آدم ومليكة كانا قادرَين على ترتيب أفكارهما بما يثبت وجود تباينات واضحة بين الديانتين، وبالتالي لم يقتنعا

بمحاولات يوسف ومُلك إظهار كل منهما عدم التحيز الكلي لديانته أمامهما، فظل الإسلام ساكنًا قلب آدم كما المسيحية بقلب مليكة، اللهم إلا قاعدة مختلطة من بعض المعتقدات بقيت بنفسيهما، سبّبها صغر سنهما وخلطهما بين صغائر التفاصيل في الديانتين إضافة إلى عدم دراية يوسف ومُلك بالمسيحية والإسلام تمام الدراية الكافية لتعليمهما أصول الدين، فكانت تلك القاعدة المختلطة أقرب إلى التشوه العقائدي منها إلى السماحة وإكنان الودّ تجاه الدين الآخر.

لم تكن النتيجة التي وصل لها الطفلان مرضية تمام الرضا لوالديهما، لكنها على الأقل كانت بمنزلة الحد الأدنى لاجتياز امتحانًا في مستوى الطالب الخرافي!، فارتاح بالهما تجاه هذه النقطة بما يكفي لمواجهة باقي صعاب الحياة، والتي تمثلت أصعبها في الرد على أسئلة آدم ومليكة الفضولي معظمُها، ورغم أن الطفلين كانا كثيرا السؤال حرص يوسف ومُلك على عدم غشهما في الإجابات، لكنهما وقعا في مأزق كبير ذات ليلة استيقظ فيها آدم من النوم فَزِعًا على إثر كابوس ولم يجد أمه وأبيه بفراشهما فذهب يبحث عنهما عَند الشاطئ، وهناك رآهما تحت ضوء القمر في وضعية جماع، وحين انتبها له واقفًا وعلى وجهه علامات استفهام عما يفعَلان انتفضا يغطيان عوراتهما ويلملمان الشتات، ثم زَعَّقَ به يوسف ونَهَرَهُ للمرة الأولى بحياته مطالبًا إياه بالعودة إلى الكهف حتى يلحقا به، ما أثّر في نفسية الطفل وجعله يرفض التحدث مع أبيه ـ الذي حاول مصالحته ـ لأيام، كما زاد من

حيرته حول ذلك الذي رآه ودفع أبيه لإهانته بسبب رؤيته له، كما زاد الموقف من خوف يوسف ومُلك، فها قد عادت الأفكار القاتلة الممزِّقة لتضرب رُوحَيهما من جديد وكأنها تبلغهما بحلول موعد الحساب، وازداد الرعب رعبًا حين سأل الطفلان ذات مرة عن كيفية مجيئهما الحياة، فآثر يوسف ومُلك تأجيل الأمر بمراوغة الطفلين ـلأول مرةـ والإجابة بأنهما سيبلغانهما في الوقت المناسب.. والذي لا يعرفان ميعاده!.

لم تمثّل المشكلات العقائدية والجنسية وحدها أزمة نقص مشكّلات الوعي والَإدراك بالنسبة لآدم ومليكة، بل ميلادهما على هذه الجزيرة ـ التي لم يطأها بشر قبل والديهماـ ساهم في ضبابية المعلومات التي استقياها عن البشر والعالم، فحكايات مُلك ويوسف لهما عن الكائنات والأشياء التي لا يعرفانها واختلاف جنسيات وأعراق وألوان ولغات الشعوب بل والأنواع والأشكال المختلفة للحيوانات والحشرات غير التي رأوها كان ينقصها مطابقة الصورة للتصوّر، كذلك فضولهما تجاه تجربة المأكولات والمشروبات المختلفة في الدنيا كان أكبر من فضولهما تجاه تجربة مذاق أنهار العسل واللبن والخمر في الجنة، فهُما لا يعرفان حتى مذاق عسل ولبن وخمر الأرض.. ولم يدخل جوفَيهما سوى الماء وجوز الهند والأسماك والسلطعونات ولحم النوارس في بعض المواسم ولبن ثدي أمهما الذي لا يتذكران مذاقه، ورغم أن فضول الطفلين كان لا حدود له لم يمِلّ

يوسف ومُلك الإجابات ولكن دون إسهاب يزيد من شعورهما بالحرمان، حتى مع كامل إيمانهما بأنهم فانون على هذه الجزيرة بلا أمل في ترحال.

كذلك الملبس كان يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لهم جميعًا، فالملابس التي أتيا بها إلى الجزيرة منذ أكثر من عشر سنوات باتت بالية تمامًا، حتى الخرَق التي صنعاها منها بالكاد لتغطية عورات آدم ومليكة منذ سبع سنوات كانت عديمة الجدوى في حماية الطفلين من الإصابة بالأنفلونزا الحادة طوال فصل شتاء الجزيرة القارس في كل عام، فلجأوا لاستخدام السعف في صنع حاميات للصدر، إلى جانب استخراج الخيوط منه لوصل أطراف تلك الخرَق المهترئة، وهكذا سارت حياة أسرتهم الهادئة غير الهانئة على طولَ الخط.

* * *

القاهرة، أكتوبر ٢٠١٠

على مدار ست سنوات منذ تخرجت من الجامعة صنعت مريم بصمة لها في مجال الصحافة والإعلام، فرغم عدم حبها له في بداية الأمر كانت تتمتع بروح فضولية شجعتها على خوض تجربة التدرب الصحفي أثناء الدراسة، والتي بدأتها بقسم الفن ونجحت في التأقلم معه حُبًّا في تتبع أخبار ما وراء الشاشة، وهو ما أخذها دون أن تشعر

لقسم التحقيقات، وعقب تخرجها مباشرة تمت خطبتها لابن عمها الدكتور محمود ثم تزوجا في أقل من عام في ٢٠٠٥، ولكنها لم تترك شغفها بالعمل الصحفي الذي تحول سريعا إلى الإعداد التليفزيوني بعدما ذاع صيتها إثر نشرها تحقيقًا يفضح قضية فساد مالي كبير، ورغم توقفها لفترة بسبب الحمل والولادة في "سارة" بأوائل العام ٢٠٠٧ عادت مريم لتحقق تميّزًا ملحوظًا بتحقيقات برنامج (التوك شو) الذي تعمل ضمن فريق إعداده، ما ساعدها بنهاية العام ٢٠٠٨ على كسب ثقة القناة لتقديم بعض فقرات البرنامج بجانب مقدّمه الشهير كسنّيدة، أو تقديم بعض الحلقات كبديلة، ثم نصف الفقرات كأساسية بحلول أكتوبر ٢٠١٠.

....

٢٠١٠ كانت أولى سنوات مالك الجامعية، حيث انتسب بصعوبة إلى كلية التجارة بجامعة حلوان، كَونه كره الدراسة وصادق جماعة سوء من أولاد وبنات في مدرسته أثّرت على مستواه الدراسي، حتى إنه مرّ من الثانوية العامة بسلام معتمداً على دعاء أمه له، ولكنه لم يكُن على درجة كبيرة من الضياع، صحيح أنه كان مراهقًا ذا فلتات شهوانية، إلا أن فلتاته كانت رجولية أكثر منها صبيانية، فجرّته تارة للخمر وتارة للنساء، لكن تفكيره كان أكبر من سنّه بدرجة يعرف معها متى يعدل

عن الشيء قبل الوقوع في أسرِه بحكم سُمك صدفته وطبيعته العنفوانية.

بعد التحاقه بالجامعة تحولت فلتاته من الخمر والنساء إلى الشغب السياسي، ولكن ذكاءه منعه من لصق اسمه بأي جماعة سياسية أيًا كان توجهها، فكان يميل إلى الحركات الثورية كـ(٦ إبريل) و(كفاية)، إلا أن ميله لم يتعدَّ حد المشاركة الفردية ولكن بشجاعة، حتى جاءت الدعوات في ٢٠١١ للخروج في تظاهرات ضد النظام في عيد الشرطة، فكان أول المُلَبّين في خِيَم الميدان عشيّة العيد.

....

* * *

ميدان التحرير، مساء الاثنين ٢٤ يناير ٢٠١١

انصاع يحيى وسيلڤيا لضغوطات ريموندا أن يحزما حقائبهما ويتوجها لقضاء بضعة أيام بمنزلها في مدينة نصر خوفًا من إغلاق ميدان التحرير من قبل المتظاهرين، فريموندا كانت تعاني وسواس القلق الشديد على أفراد عائلتها منذ غياب يوسف، حتى إنها قررت الجلوس بـچوزيف في المنزل وقدمت قبلها بأيام على طلب إجازة من عملها بالوزارة، كما دخلت في شجار كبير مع مينا ليقدم على طلب مماثل ولكنه رفض حتى إبداء التخوف من (لِعب العيال) هذا ـ على

حد وصفه للتظاهرات-، لكن وسواس ريموندا كان الأقرب للواقع، ففي صباح اليوم التالي لم يكن أحد يتوقع أن هذا الكم من البشر سيملأ الميادين والشوارع للمطالبة ببعض الإصلاحات السياسية متمثلة في تغيير حكومي شامل لتوفير العيش والحرية والعدالة الاجتماعية، لكن تعنُّت النظام وجبروت الداخلية كانا أهم عاملين في رفع سقف المطالب وتقليص عددها إلى مطلب وحيد عنوانه (ارحل)، فتوحدت مشاعر ريموندا قلبًا وقالبًا مع المتظاهرين متأفّفة من طبقيّة زوجها ولا مبالاة أبيها وأمها، لاسيّما عقب سقوط مئات الشهداء بأحداث جمعة الغضب في ٢٨ يناير، فتحول المشهد -على يد الرصاص الحي- من انتفاضة سلمية إلى ثورة شعبية حقيقية تطالب بإسقاط النظام.

....

* * *

ميدان التحرير، ظهر الأربعاء ٢ فبراير ٢٠١١

كان مالك يتباهى وسط شركاء خيمته بعدد أفراد الشرطة الذين أصابهم بالحجارة رغم عدم تمكُّن خرطوش وحيّ ومطاط وهراوات الشرطة من إصابته على مدار تسعة أيام، وحينها أُثير هرج ومرج كبيران على إثر اقتحام بلطجية يمتطون جمال وخيول للميدان حاملين سياط وعصي وأسلحة بيضاء و(زجاجات مولوتوف) في مشهد غير

مألوف وغير مفهوم أيضًا، وقبل أن يُسقط مالك ضحيته الأولى فيما عرفت بموقعة الجمل سقط هو مصابًا بجَرح عميق في ساقه اليسرى جراء ضربة سيف، قضى على إثرها يومين كاملين بلا حراك في مستشفى ميداني، واستكمل باقي أيام الثورة أعرجَ مربوط الساق، رافضًا العودة للمنزل قبل سماع خبر التنحي.

وفي صباح الثاني عشر من فبراير بعد قضاء سهرة صبّاحي بوسط القاهرة احتفالًا بتنحّي رئيس النظام محمد حسني مبارك عاد مالك إلى منزله فاستقبله أبوه بصفعة قوية، ثم احتضنه بشدة.. وبكيا معًا، بينما استقبلته أمه بالنواح على ساقه العرجاء الغارقة في آثار الدماء، فيما استقبلته أخته بنظرة لم يفهم معناها حينها.

بعد أن اغتسل ونام لأول مرة على سريره منذ ١٨ يومًا استيقظ مالك بعد العشاء، ورغم أجواء الفرح التي كانت تملأ الشوارع والقنوات الفضائية كان يشعر مالك بظلّ من الحزن يخيّم على أجواء المنزل، حتى حسب أن أسرته متخذة موقفًا ضد الثورة أو على الأقل تعاطفت مع خطابات المخلوع، فلم يستطع تمالك نفسه خلال تناول الطعام،

مـــالك: هو ليه الصمت ده؟، فيه ايه يا جماعة مالكم؟..

چيهان: افتكرناك مُتّ..

مريم: بعد الشر يا ماما ايه اللي بتقوليه ده!..

چيهان: مش شايفة جايلي غرقان في دمه ازاي؟..

مـــالك: أنا كويس اهو يا أمي ماحصلّيش حاجة، بس كان هيحصل لي حاجة فعلًا لو ماكنتش نزلت. .

مـــريم: بس على الأقل كنت عرّفنا يا مالك، عمومًا ألف حمد لله على سلامتك يا حبيبي، والحمد لله إنك بخير. .

چيهان: خير؟! وهو فين الخير ده؟، ماجالناش من ثورتكو دي إلا الخراب، عاجبك يعني اللي حصل له ده واللي حصل لأبوه؟!. .

مـــالك: بابا؟!. .

سليمان: چيهان!!، مش عاوز اسمع كلمة زيادة. .

مـــالك: مالَك يا بابا ايه اللي حصل؟.

بارتباك نهضت مريم وطلبت من مالك أن يتحدثا على انفراد في غرفته، فنهض معها وعينه مثبتة على عين والده التي ثبتت شَزْرًا على عين والدته الباكية، وفي الغرفة عرف منها أن والده ظل يبحث عنه في الميدان لثلاثة أيام حتى قبض عليه في الرابع، وظل معتقلًا لمدة أسبوع تم التعامل معه خلاله بشكل مهين وصل حد التعذيب عقب تحقق جهاز أمن الدولة من أنه دكتور أكاديمي له شعبية كبيرة بين الشباب الجامعي، وافتراض الجهاز أنه ساهم في إثارة هؤلاء الشباب ضد النظام، كما عرف من مريم أنه تم توقيفها عن العمل بالقناة بسبب مساندتها للثورة منذ يومها الأول على الهواء، وأن القناة قامت بقطع البث عليها لكن

بعد أن كانت قد ألقت ما بجوفها من توبيخ للحكومة وإعلامها، وحينها فقط فهم مالك معاني الصفعة والحضن والبكاء.

....

* * *

القاهرة، مارس ٢٠١١

بعد مرور شهر واحد على خلع مبارك واعتراف الإعلام المصري بثورة ٢٥ يناير عرضت أكثر من قناة فضائية على مريم تقديم برنامج توك شو مستقل بها لكونها أحد رموز الإعلام الداعمة للثورة، وبعد المفاضلة اختارت مريم عرض قناة وليدة محسوبة على أحد رجال الأعمال المعروف عنهم مناهضة النظام القديم منذ زمن لأسباب اقتصادية واستثمارية، ورغم أن القناة تعمدت إطلاق البرنامج بعد انتهاء الاستفتاء على التعديلات الدستورية في مارس ـ تحسبًا لآراء مريم المندفعةـ لكنها لم تشغل بالها بالأمر كثيرًا معدّةً القادم أهم، وبالفعل قدمت مريم أولى حلقات برنامجها في مستهل شهر أبريل ولاقت ترحيبًا واهتمامًا كبيرين من قِبَل شريحة الشباب، وهكذا سار بها الأمر ناجحًا حتى أحداث شارع محمد محمود.

....

* * *

ميدان التحرير، الجمعة ١٨ نوفمبر ٢٠١١

بعد أداء صلاة الجمعة توجه عدد من أعضاء وداعمي أحزاب الإسلام السياسي إلى ميدان التحرير للتظاهر رفضًا لما سميت بـ(وثيقة السلمي)، مضيّقين الخناق على أهالي الشهداء والمصابين الذين تمخّض صبرهم فولد غضبًا عقب مرور تسعة أشهر كاملة على ضياع حقوق أبنائهم، فاستوطنوا الميدان قبل ذلك بأيام للاعتصام والمطالبة بها، وبحلول منتصف الليل انسحب المتظاهرون إلى مخادعهم بينما واصل المعتصمون افتراشهم ساحة الميدان. بعد عصر اليوم التالي تسلل عدد من البلطجية إلى الميدان لمضايقة المعتصمين، وبينما هم يحاولون التصدي لهم انقضّت قوات الأمن على الميدان لفض الاعتصام، ولكن تمسّك المعتصمين بالأسفلت المَروي بدماء أبنائهم كان أعتى من شُوم البلطجية وهرّاوات الداخلية فأنهكَها، ولكن ما هي إلا ساعات واستردت الشرطة صحتها على المعتصمين في قلب الليل مشعلة حربًا، واستمرت الاشتباكات ليومين ما أثار حفيظة عدد من الحركات السياسية وشباب الثورة فدعوا لمليونية لمؤازرة المعتصمين ومطالبة المجلس العسكري بتسليم السلطة لرئيس مدني في موعد أقصاه أبريل ٢٠١٢، وبالفعل بحلول الثلاثاء ٢٢ نوفمبر امتلأ الميدان عن آخره حتى الشوارع المحيطة لاسيّما شارع محمد محمود المؤدي لمقر وزارة الداخلية، ووسط كر وفر في حرب شوارع سقط عدد من المصابين كان من بينهم مالِك بإحدى وعشرين طلقة خرطوش في

الظهر والفخذين ـ وكأنها تحية عسكرية!ـ، كما سقط بين يديه ـفي اللحظةـ صديق عمره "خالد" في عداد الشهداء برصاص حيّ في الرأس.

في مساء اليوم بدأت مريم حلقة جديدة من برنامجها بمقدمة هجومية على المجلس العسكري كانت ترتجف وهي تلقيها من شدة حزنها على حالة أخيها الصحية الخطرة بالمستشفى وحالته النفسية المزرية نتيجة استشهاد صديقه، ومع توالي سقوط شهداء بالأحداث تصاعدت حدة نبرة مقدماتها الهجومية يوميًا، حتى تم إبلاغها بإيقاف البرنامج ـ في آخر أيام الأحداث الجمعة ٢٥ نوفمبرـ لأجل غير مسمى بالضغط على مالك القناة، وعادت مريم للجلوس بمنزلها في حالة من الإحباط، وظلتَ في المنزل لأسابيع حتى حسبت أنها لن تمارس المهنة ثانيةً، فبدأت بالالتفات لبيتها وزوجها وابنتها سارة التي أتمت في يناير ٢٠١٢ عامها الخامس، بل وانتبهت أنها لم تُخاوها بعد، وبالفعل بعد سبعة أشهر في ٣١ أغسطس ٢٠١٢ رُزِقَت العائلةَ بـ"يُسر".

....

في منتصف سبتمبر بدأ مالك في إعادة سَنته الدراسية الثانية بالكلية بعجز جزئي في حركة ساقه اليسرى ألزمته بالتعكز المؤقت على عكاز، فإصابته بأحداث محمد محمود سببت ضرراً بعموده الفقري لم

يخرج بسببه من المستشفى إلا بعد بدء الترم الثاني، وإصابته النفسية من الأحداث برمتها منعته من خوض تجربة دخول الترم أو امتحاناته، وهو ما ألزمه بإعادة سنته الدراسية برمتها، ولكن عجزه الحقيقي كان في شعوره بالإحباط، وانصياعه بكل سلاسة لوصايا أمه بالابتعاد عن التظاهرات والاكتفاء بما جنت الأسرة كلها من السياسة، حتى إنه أغلق على نفسه غرفته في الذكرى الأولى للأحداث، وأجهش بالبكاء للمرة الأولى في حياته تقريبًا.

هكذا صار مالك مسالمًا سياسيًا في ظاهره منكسراً في باطنه خلال أيام دراسته بالجامعة، ولم تستثره أي دعوات للخروج في تظاهرات ضد سياسات الإخوان المسلمين في الحكم، حتى وقعت بيده في أواخر أبريل ٢٠١٣ استمارة حركة (تمرد) التي تجمع توقيعات من الشعب لعزل الرئيس محمد مرسي في ٣٠ يونيو الموافق للذكرى الأولى لتسلمه الحكم، ولكونها مجرد استمارة لن تكلفه سوى التوقيع استثارته الفكرة فوقّع عليها، ومع الوقت والمتابعة بدأ حجم استثارته يزداد حتى بدأ يسوّق لها شفهيًا بين أصحابه ومعارفه، ومع عودة أخته للحقل الإعلامي في قناة جديدة ببرنامج توك شو جديد في منتصف مايو وإيمانها بالحركة والتسويق لها عبر وسائل التواصل الاجتماعي بدأ مالك يأخذ خطوات ميدانية في المشاركة بجمع التوقيعات، وفي الميعاد المحدد للتمرد كان مالك بين صفوف الشعب بميدان التحرير يومًا وبالاتحادية يومًا على مدار أربعة أيام، حتى أُعلِنَ عزل مرسي مساء

الأربعاء ٣ يوليو، فكان ذلك الإعلان كافيًا لجَبر روحه الثورية المنكسرة منذ قرابة عامين.

....

* * *

ميدان رابعة العدوية، الأربعاء ١٤ أغسطس ٢٠١٣

بعزل الإخوان المسلمين من الحكم انزاحت غُمّة من على قلب عدد كبير من المصريين ـ لاسيّما معظم المسيحيين ـ لكن على الجانب الآخر كان هناك عدد ليس بقليل من المؤيدين والمتعاطفين معهم، وتمثلت تحركات معظمهم ـأمام نجاح ثورة ٣٠ يونيوـ في تعزيز التظاهرات المعتصمة بعدد من الميادين منذ الجمعة ٢٨ يونيو وأهمهم ميدان رابعة العدوية بحيّ مدينة نصر، وهو الاعتصام الذي ضيّق الخناق على سكان المنطقة ومنهم ريموندا ومينا، حتى فاض بهما وبجُلّ السكان الكيل مطالبين بسرعة فضّ الاعتصام الذي دام لشهر ونصف، ولكن ما لم يكن في حسبان ريموندا حينها هو إقدام الأمن على فض الاعتصام بالقوة، ففي صباح الأربعاء ١٤ أغسطس تحول الميدان لساحة حرب على مدار عشر ساعات تقريبًا، ونشب شجار كبير بين ريموندا ومينا بسبب اختلاف موقفهما حول طريقة الفض، حيث كانت ترى أن استخدام القوة لفض اعتصامٍ ـأيًا كانت مطالب

معتصميه- يعدّ مجزرة مكتملة الأركان، لكن سبب الشجار لم يكن لمعارضته رأيها، بل لقوله: يستاهلوا! .

وفي صباح اليوم التالي حزمت ريموندا حقائب ملابسها وأخذت چوزيف واستقلّت سيارتها باتجاه منزل والديها، رافضة العيش مع مينا تحت سقف واحد خوفًا على ابنها ذي العشرة أعوام من انتقال أفكار أبيه إليه والتي تصفها باللا إنسانية، لكنها صدمت من ردة فعل والديها حين رفضا تركها لمنزلها لأسباب واهية - على حد وصفهما-، إلا أنه كان شديد الوضوح في لهجتيهما أن وجهة نظريهما تجاه ما حدث لا تختلف كثيراً عن "يستاهلوا!" .

....

قُبَيل فض اعتصام رابعة العدوية بأيام ومنذ إعلان الداخلية اعتزامها الفض باستخدام القوة كانت مريم من أشد المعارضين - خلال برنامجها- لهذه الطريقة، وبعد فض الاعتصام لم تنتظر مريم إيقاف برنامجها -كالعادة-، ففي مساء اليوم التالي للفض وفي حلقة لم تتعدَّ مدتها سبع دقائق قدمت مريم اعتذاراً على تمجيدها لـ٣٠ يونيو، واعتذاراً على دعمها حركة تمرد من الأساس، خاتمةً حديثها بإعلان استقالتها -على الهواء مباشرةً- من العمل بالبرامج السياسية بشكل كامل حتى استعادة ثورة ٢٥ يناير المسروقة -حسب تعبيرها-.

بعد هذه الحلقة الأخيرة بأيام عرضت القناة على مريم العودة بحجّة أنها استبَقت الأحداث وأن لا أحداً كان سيوقف برنامجها سواء من القناة أو من السلطات، ما أثار شكوكها بأن الأمر به فخّ ما، ولكن على أي حال قرارها كان نهائيًا بشكل تغييره مُحال مهما كانت الإغراءات وعليه أصرّت على الاستقالة، وبعد فترة راحة ومتابعة دامت لأربعة شهور ونصف الشهر أطلت مريم على جمهورها في مطلع العام الجديد ٢٠١٤ ببرنامج يناقش مشكلات المجتمع بشكل اجتماعي بحت بعيداً عن تحليلها سياسيًا.

* * *

كوالالمبور، صباح السبت ٨ مارس ٢٠١٤

استيقظ خمسون منزلًا ماليزيًا على فاجعة خبر فقدان الطائرة صاحبة الرحلة رقم (MH 370) بعد إقلاعها من مطار كوالالمبور الدولي في تمام الثانية عشر وواحد وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل، وبدلًا من أن تهبط في مطار العاصمة الصينية بكين بعد أقل من ست ساعات ظلت الطائرة محلقة لحوالي سبع ساعات مغيّرة خط سيرها بحسب آخر تسجيل لها على الرادارات، وذلك قبل أن يختفي أثرها تمامًا.

بمرور الوقت أعلنت عدة دول تباعًا المشاركة في عمليات البحث عن الطائرة المفقودة التي حملت على متنها مائتان وتسعة وثلاثون شخصًا معظمهم صينيون وبينهم خمسون ماليزيًا، ولكن استمرار محاولات البحث لأسابيع بأسطول ضخم من السفن والطائرات دون أي جدوى شكل كارثة وظاهرة غريبة حيرت العالم بأسره، مسبّبةً إحراجًا كبيرًا للعلم الحديث وإعجازًا لتقنياته المهولة!، ولكن المفارقة العجيبة التي صاحبت عمليات البحث عن آثار الطائرة الماليزية المفقودة بالمحيط الهندي بعد خمسة أشهر، كانت في العثور على حطام طائرة الخطوط الإماراتية المفقودة بالمحيط نفسه منذ قرابة خمسة عشر عامًا!.

* * *

الأرخبيل، صباح الأربعاء ٢٠ أغسطس ٢٠١٤

كعادتها استيقظت من النوم مبكرًا قبل زوجها والطفلين، ونزلت إلى المحيط للاستحمام، وأثناء استرخائها بالنوم على ظهرها وهي مغمضة العينين شعرت بذبذبات غريبة عليها ففتحت عينيها في قلق، وأحست بأن هناك أمرًا بالبحر أو الجو غير عادي، ولكن سرعان ما عدَّتها أوهامًا ونفضت الفكرة عن رأسها وخرجت إلى البر، ارتدت خرقتَيها وجمعت حجارتها وصعدت التل متوجهة ناحية الغابة، وأثناء إلقاء الحجارة على حبات جوز الهند شعرت بالذبذبات نفسها،

وأخذت الذبذبات ترتفع حتى سمعت صوتًا في الجو وكأنه هدير طائرة، فتلفّتت حولها ولم تشاهد شيئًا بسبب ما تعانيه من قِصَر بسيط بالنظر، ولكن حين ضيّقت حدقتَيها واتبّعت مصدر الصَوت رأت بالفعل طائرة تحلق على مستوى منخفض بعض الشيء ولكن على بُعد، فتركت حجارتها ونزلت مسرعة إلى الكهف وأيقظت يوسف والطفلين وأبلغتهم بما شاهدت، فخرجوا مسرعين لجمع السعف وأشعلوا به النار على الشاطئ وفوق التل، ولكن الطائرة لم تقترب.

أصيبوا بخيبة أمل كبيرة، ولأول مرة منذ سنوات بكت مُلك منوّحة على حالهم وهي ترجو من الله ببكاء شديد العودة إلى مصر، شاكية عدم قدرتها على تحمل المزيد من الشقاء، وأنها لا تريد لآدم ومليكة الموت على هذه الجزيرة، فاحتضنهم يوسف بشدة وظلوا على هذه الوضعية فوق التل لساعات لعل وعسى تعود الطائرة، وبالفعل سمعت مُلك الصوت ثانيةً قرب الغروب حتى شاهدت كشاف مروحيّة، فأخذت تلوح بسعف النخيل المشتعل بعنف حتى لسعت ساعدها، وظلوا أربعتهم يلوحون وينادون حتى شعروا بأنهم لفتوا انتباهَ الطيار وأنه يطير باتجاههم، وظهرت خلفها مروحية أخرى واقتربتا منهم حتى حلقتا فوق رؤوسهم، ثم أطلق أحد أفراد الفريق نداءات لطمأنتهم، وهبطت الطائرتان على أرض الجزيرة.

....

كان طاقم المروحيتين في غاية السعادة حين شاهد النيران، وعلى الفور أرسل رُبّان إحدى الطائرتين رسالة إلى قيادة عمليات البحث مفادها أنهم عثروا على ناجين، وبعد الاقتراب من الجزيرة أرسل رسالة أخرى يقول فيها: نشاهد حطام الطائرة على جزيرة صغيرة ولدينا حتى الآن أربعة ناجين فقط وسنقوم بالبحث عن المزيد.

ولكن بعد هبوط الطاقم من الطائرتين ورؤية منظر الأربعة وملابسهم المهترئة عرفوا أنهم ليسوا ناجين وإنما قاطنين، وتأكدوا من ذلك بعد كشف الفريق على حطام الطائرة ومعرفة أنه ليس للماليزية.

....

عدم استخدامهما للغة الإنجليزية في التحدث لقرابة خمسة عشر عامًا صعّب عملية التفاهم إلى حد كبير مع أفراد فريق الإنقاذ، ولكنهما استطاعا توضيح حالتهم وشرح أسباب وجودهم هنا لسنوات، قبل أن تنقلهم المروحيتان إلى العاصمة الماليزية، وهناك حظوا باهتمام بالغ ـ أو هكذا ظنوا ـ من قبل قيادات عمليات البحث عن الطائرة المفقودة، والذين بدورهم سلموهم لمسؤولين في الحكومة الماليزية اهتموا بتوفير رعاية خاصة لهم، فأودعوهم جناحًا من غرفتين بأحد الفنادق الهادئة، وهناك اهتموا بأدق التفاصيل من الكشف الطبي للنظافة للملبس والمأكل، خاصةً الأخير والذي كان يثير فضولهم عن

غيره، فأكلوا حتى تعبوا، أكلوا كأنهم لم يأكلوا من قبل، أما آدم ومليكة فصحّحا لأول مرة تصوراتهما عن بعض الأشياء بصورة الواقع.

بعد لهوهما الفوضوي بمفاتيح المصابيح الكهربائيّة والقفز فوق مرتبات النوم الإسفنجيّة وتفجير زجاجات المياه الغازيّة غَطّ الطفلان في سبات عميق بغرفتهما، ثم اختلت مُلك بنفسها في الحمّام الذي لم ينسَ القائمون على الخدمة في الفندق تزويده بوسائل العناية الصحية كافة، حتى عجينة إزالة الشعر المغلفة التي رمقتها مُلك أثناء استحمامها منذ ساعات. كانت تشعر بلذة غريبة في ذلك الألم الذي نسته منذ سنوات طوال، فالأمر ذكَرها بأنوثتها التي تلاشت شيئًا فشيء على مر قرابة خمسة عشر عامًا، وابتهجت لفكرة أنها تتزيَّن لزوجها للمرة الأولى كما يجب التزيُّن أن يكون، فعقب دهن جسمها بالمرطبات وتزيين وجهها بمساحيق التجميل وتطييب ملابسها بالعطور خرجت مُلك في أبهى صورها كامرأة. كانت تشعر أنها المرة الأخيرة التي ستنام فيها بين ذراعيه، وربما المرة الأخيرة التي ستنام فيها معه بمكان واحد، ورغم خجلها المعتاد تعمدت إيقاظه بل وطلبه على غير عادتها، لكنه لم يستيقظ، فامتطته.. وأخذت تتحرك فوقه بعنف وكأنها تمتطي ظهر جَواد تركض به نحو الهاوية، وحين انتبه وأمسك بفخذيها زادت من عنفً حركتها فوقه، حتى سقطت منها دمعة حارة

فوق صدره البارد فتبخّرت.. وتبخّرت معها آخر لحظات هنائهما كزوجين!.

***

كوالالمبور، صباح الخميس ٢١ أغسطس ٢٠١٤

في كشف هو الأكبر خلال العام ٢٠١٤ أعلن المتحدث باسم الحكومة الماليزية خلال مؤتمر صحفي العثور على حطام طائرة الخطوط الإماراتية من طراز (آير باص A330) والمفقودة منذ الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩، وذلك على جزيرة مجهولة بأرخبيل الملايو ـ تتبع إقليميًّا دولة إندونيسيا ـ أثناء عمليات البحث عن الطائرة الماليزية (MH 370) في المحيط الهندي، وفي إعلان صادم للعالم أجمع أضاف المتحدث أن فريق البحث عثر أيضًا على ناجيَين وهما رجل وإمرأة مصريَّين.. وطفليهما التوأم البالغَين من العمر قرابة أحد عشر عامًا!.

استقبل العالم أجمع الخبر بفرحة وتعجّب كبيرين، بينما في القاهرة أعلن المتحدث باسم الخارجية المصرية في مؤتمر صحفي إجراء الوزارة اتصالات مكثفة مع الجانب الماليزي، وتوجيه السفارة المصرية في كوالالمبور إلى سرعة وتسهيل إجراءات انتقال "يوسف يحيى غبريال" و"مُلك سليمان عبد العزيز" وطفليهما إلى أرض الوطن،

وبمجرد الكشف عن اسميهما كانت الفاجعة!، فكل أسر وعائلات ركاب الطائرة كانوا في انتظار إعلان أسماء ذويهم بين الناجيَين، بينما أفراد عائلتيّ يوسف ومُلك كانوا في موقف لا يحسدون عليه، فمشاعرهم انقسمت بين السعادة والغضب، ودموعهم انقسمت بين الفرحة والصدمة!، كما انقسمت برامج التوك شو ومواقع التواصل الاجتماعي بين سعداء لعودتهم وآخرين ضد زواجهما وبالتالي ضد الترحيب بهم، إضافة إلى بعض المدافعين المتكهنين بأن يوسف بالقطع أسلَم قبل الزواج من مُلك، فيما امتنعت مريم عن الظهور إعلاميًا وعلّقت البرنامج حتى عودة أختها.

* * *

مطار القاهرة الدولي، صباح السبت ٢٣ أغسطس ٢٠١٤

اجتمع عدد كبير من الناس لاستقبالهم بالمطار، وحين أطلّوا عليهم شعرَ يوسف ومُلك في نظراتهم وكأنهم ينظرون لكائنات فضائية، بعضهم رحب بهم بالهتافات والابتسامات والبعض الآخر نظر لهم في حذر وكأنهم سيغزون الأرض، ولكن حنينًا دفينًا غمرهما حين لفحت نسمات القاهرة وجهيهما، أما آدم ومليكة فكانا ينظران للحشد الواقف بفضول بالغ وكأنهم مخلوقات أخرى غير البشر، ملابسهم وتجمهرهم وضوضاؤهم ولافتاتهم وكاميرات التليفزيون

وفلاشات الهواتف النقالة كانت تبهجهم، ورغم محاولات المراسلين والصحفيين المستميتة لإيقافهم استطاع أربعتهم الخروج مسرعين من المطار داخل حلقة من أفراد الأمن، وفي الخارج كانت عائلتا يوسف ومُلك ـ اللذان تعارفا هناك للمرة الأولى ـ ينتظران في حذر وترقب لفهم تفاصيل الأمر، وحين ظهروا سادت الدموع الموقف، وركضت مُلك صوب أسرتها التي احتضنتها بشدة واحتضنت آدم ومليكة، وركض يوسف صوب أخته التي أغرقته بالقبلات وأمه التي رآها تبكي للمرة الأولى في حياته، وحين حاول احتضان أبيه صفعه الأخير على وجهه أمام الكاميرات ثم نظر لحجاب مُلك باحتقار وانصرف بسيارته.

ذُهلت مُلك وأسرتها على إثر الموقف، وأُعتمت الدنيا فجأة في عينيّ يوسف حتى إنه دفع بشدة أحد المصورين الصحفيين ـ الذي حاول تصويره عن قرب ـ فطرحه أرضًا وانكسرت عدسته، ثم ترك الطفلين لمُلك وأسرتها وتوجه مع أمه وأخته وزوجها إلى منزل الأخيرَين، وظل صامتًا طوال الطريق، يتابع اللافتات وتغير الشوارع ونمط الحياة في شيء من الشرود في موقف والده منه، بينما مُلك كانت تعاني في اللحاق بالرد على أسئلة مليكة وآدم الاستفهامية عما يشاهداه لأول مرة في حياتهما من سيارات ومنازل وغيره ـ كما كانا يفعلان مع يوسف في الطريق لمطار كوالالمبور ـ.

....

حيّ السيدة زينب لم يتغير كثيرًا، ما زالت به نفس الروح رغم تغيّر بعض المحال وشكل الناس وازدحام الشوارع، كذلك منزل والدها لم تتغير به الروح منذ رحيلها، كل شيء في مكانه، حتى غرفتها لم تُمَسّ، فور دخولهم المنزل ذهبت مريم لتجهيز الحمّام وبعض من ملابسها وملابس سارة لمُلك والطفلين، وبعد حمّام طويل ـ حاولت مُلك خلاله تعليمهما الاستحمام بمفردهماـ جلسوا لتناول الغداء، وحينها بدأت مليكة في تلاوة صلاة قبل الأكل: باركنا يارب، وبارك هذا الطعام الذي نتناوله من سخائك الأبوي، وارزق الجائع طعاما، بربنا يسوع المسيح، آمين..

چيهان: يا نهار اسود يا نهار اسود!!..

سليمان: مالك.. خُد آدم ومليكة وسارة وادخل بيهم أوضة مُلك..

مــريم: ماما ارجوكي بالهداوة مش وقته الكلام ده..

مُلــك: سيبيها يا مريم، من حقكم تعرفوا كل حاجة..

چيهان: هو ما أسلَمش؟!..

مُلــك: لأ..

چيهان: يادي المصيبة..

مُلــك: مش مصيبة، يوسف جوزي قدام ربنا، وبعدين ده ماحصلش بسهولة، احنا مالمسناش بعض إلا بعد ٣ سنين تقريبا. .

چيهان: ياريتها جت عليه لوحده، لأ وكمان العيال طلعت زيّه! . .

مُلــك: مليكة بس. .

چيهان: يا فرحتي بيكي يا مُلك، يا ميلة بختي فيكي يا مُلك، الناس هتاكل وشّنا، ومش هنخلص من لسان عمتك، أبوكي الطلبة بتوعه هيعايروه، واختك مبهدلينها ع النت. .

سليمان: مريم خُدي أمك أوضتها وسيبولي مُلك شوية. .

ارتمت مُلك في حضن أبيها باكية وقالت: بابا أنا آسفة، ماكنتش اقصد كل ده والله العظيم بس غصب عني. .

فربّت على رأسها قائلًا: أنا الوحيد اللي كنت عارف إنك لسه عايشة. .

مُلــك: يا ريتني كنت مُتّ. .

سليمان: اهدي، اهدي وفهميني واحدة واحدة كل اللي حصل.

....

لم تستطع سيلڤيا الانتظار حتى تختلي بيوسف لتعرف إجابة سؤالها، فباغتته فور الدخول من باب المنزل: ازاي ده حصل؟!..

- ماكانش ينفع مايحصلش طول السنين دي يا أمي..
- ليه يا يوسف؟، ليه يابني عملت كده؟..
- ماعملتش يا أمي...

ثم قال وهو يخلع قلادته ويلفها حول عنقها: أنا ماغيرتش ديني..

قالت وهي تمسح دموعها: أومال ايه اللي حصل؟..

- اللي حصل إن كل واحد فينا كان متمسك بدينه، وماكانش قدامنا غير إننا نتجوزع الوضع ده..
- بس ده مش جواز يا يوسف والكنيسة مش هترضى أبدا بالوضع ده..
- بس ده استثناء يا أمي..
- الكنيسة ماعندهاش استثناءات، وإن كان عندها فيسوع ماعندوش..
- ربنا يمد ايده، أكيد هنلقى حل..
- طب ليه محاولتش يابني تقنعها طول الفترة دي؟..

ـ حاولت يا أمي، وهي كمان حاولت بس ماكانش فيه أي مجال حد مننا يقتنع بكلام التاني . .

ـ طب وآدم ومليكة؟ . .

ـ مش عارف . .

ـ يعني ايه مش عارف؟! . .

ـ الولاد لسه أول مرة يشوفوا حياة ومحتاجين تأهيل ويتعلموا ويفهموا حاجات كتير . .

ـ يعني سِبت العيال من غير ما تعرّفهم ربنا ولا الدين؟! . .

ـ لأ عارفين، ده حتى مليكة حافظة كل الصلوات . .

ـ وآدم مش حافظ؟ . .

ـ آدم . . . آدم مرتبط جدًا بأمه .

أخذت سيلڤيا في النواح واللطم وحاولت ريموندا تهدئتها ثم قامت بها إلى غرفتها، وناولتها دواء الضغط ومهدئ وجلست بجوارها حتى نامت، ثم عادت ليوسف الذي تردد قليلًا قبل أن يأخذ سيجارة من مينا ويشعلها، فتركهم مينا وذهب لعمل القهوة، وتبادل يوسف وأخته سرد تفاصيل كل شئ.

....

* * *

وسط القاهرة، صباح الأحد ٢٤ أغسطس ٢٠١٤

ذهب يوسف إلى كنيسته بعد أن ابتاعت له أخته بعض الملابس ونظارة شمسية كبيرة، وهناك سأل عن القسّ "بولس" وهو الكاهن الذي اعتاد الاعتراف على يده وهو صغير، وابتهج كثيراً حين علم أنه لا يزال على قيد الحياة وقد نال رتبة قُمُّص، وبعد الانتظار قليلًا بغرفة الاعتراف سمع صوته: كنت عارف إنك هتيجي..

- وحشتني يا ابونا..
- وانت كمان وحشتني يا يوسف، رغم إنك ماجتش الكنيسة من قبل الحادثة بكتير بس كنت عارف إنك جاي..
- أنا تعبان أوي يا ابونا، أبويا تقريبا اتبرّى مني ورفض حتى إنه يسلم عليا..
- مصر كلها ماعندهاش سيرة من امبارح غير الموضوع ده، أنا عارف إن اللي عملته ده كان غصب عنك وأكيد الرب هيغفرهولك، المهم ترجع عنه..
- يعني ايه؟!..
- انتم قاعدين مع بعض؟..
- لأ، هي عند أهلها بالأولاد وأنا قاعد في بيت ريموندا أختي..
- عظيم، ولازم يفضل الوضع على ما هو عليه..

- بس يا ابونا دي أم أولادي . .

- إنما مش مراتك يا يوسف، حالتكم بظروفها دي أول مرة تحصل والمَجمَع المقدس أكيد هيجتمع عشان يفتي فيها، وأنا عندي إيمان بإن يسوع كان قابل باللي حصل بسبب ظروفكم، إنما الظروف دي دلوقتي اتشالت يابني، وماحدش يقدر يضحك على الرب . .

صَمَت يوسف طويلًا فاستطرد الأب بولس: ايه أخبار الأولاد يا يوسف.

وحينها بَكَى يوسف بكاءً شديداً، فربّت الأب بولس على يده وطالبه بالصلاة والتناول قبل المغادرة.

....

بعد مكالمة طويلة بينهما اقتنع يوسف ومُلك بوجهة نظر مريم أن يظهرا والطفلان معها في حلقة تذاع على الهواء مباشرة ببرنامجها لسرد قصتهم وتوضيح ملابسات الحادث والظروف التي تعرضوا لها، وعليه أعطت مريم أوامرها لفريق البرنامج بإعداد إعلان عن الحلقة وإذاعته على القناة، كما أنه وخلال المكالمة نفسها طلب الدكتور سليمان من يوسف أن يحضر والدته وأخته بهدف التعارف بين العائلتين.

في البداية عارضت سيلڤيا الفكرة وحاولت التحجج بالمرض لكن ريموندا أثّرت عليها فوافقت لأنها تريد رؤية حفيديها ـ خصوصًا مليكة ـ، وبالفعل ذهب يوسف وسيلڤيا وريموندا وچوزيف لتناول الغداء في بيت الدكتور سليمان باليوم التالي، وبالرغم من أن محمود زوج مريم لم يكن حاضرًا ارتدت مُلك حجابها وأحكمته، ما أثار حفيظة يوسف وأمه دون أن يشيرا إلى ذلك، فسار اليوم بسلام من دون منغّصات شفهية من قِبَل الجانبين، وبعد انتهاء التعارف ومشارفة المقابلة على الانتهاء طلَب يوسف من مُلك أن يأخذ مليكة لتبيت معه تلك الليلة، وبالطبع لم تكُن لترفض لكنها شعرت ومليكة ذاهبة معهم بأن روحها تُسحب منها، فهذه أول ليلة يبيت فيها أحد طفليها بعيدًا عن حضنها خلال قرابة أربعة آلاف يوم.

....

* * *

مدينة الإنتاج الإعلامي، مساء الثلاثاء ٢٦ أغسطس ٢٠١٤

حضر يوسف ومليكة لمنزل والد مُلك وانتظروا السيارة التي ستقلّهم لمدينة الإنتاج الإعلامي، وبعد وصول أربعتهم المدينة استقبلتهم مريم وأطلعتهم على تفاصيل سير الحلقة، وبعد انتهاء لحظات التوتر والقلق ـ التي مرت عليهم كأنها سنوات ـ بدأت الحلقة

بمقدمة اعتيادية من قِبَل مريم عن اكتشاف أختها ويوسف وطفليهما خلال عمليات البحث عن الطائرة الماليزية وعودتهم لوطنهم، والذي أُثير في الإعلام والصحافة العالمية كقضية رأي عام كَون يوسف ومُلك هما الناجيان الوحيدان من حادث طائرة ١٩٩٩ واكتشافهما على جزيرة مجهولة بعد قرابة خمسة عشر عامًا، ومن ثَمّ تحوُّل القضية لقضية رأي عام ثانية خصوصًا على مستوى العالم العربي والإسلامي كَون مسلمة تزوجت من مسيحي وأنجبت منه طفلين، ومن ثَمَّ بدأ يوسف في سرد تفاصيل الحادث، ثم سردت مُلك تفاصيل معاناتها في الأيام الأولى التي أصيب خلالها يوسف بالحُمَّى، ثم تبادلا سرد تفاصيل حياتهما على الجزيرة،

يوسف: بطبيعة الحال وطول الفترة اللي عشناها في المعاناة دي كلها فقدنا أي أمل في إن حد يلاقينا ومع مرور الوقت ابتدينا نؤمن بإننا هنعيش على الجزيرة دي طول عمرنا لحد ما نموت، وماكانش فيه أي سبيل غير إننا نفكر في الجواز، رغم إن ديني بيرفض الجواز من غير المسيحية زي دين مُلك بالظبط إلا إني اتوليت مفاتحتها في الموضوع لإني كنت مؤمن بإن لربنا حكمة في اللي حصل، بس مُلك كان عندها إصرار كبير لرفضه وده اللي خلانا مانفتحوش إلا على فترات بعيدة لحد ما اقتنعت إن ماقدامناش حل تاني واتجوزنا بعد سنتين وتسع شهور، وكنا متفقين مسبقًا إننا مانخلّفش بس لسوء الحظ وبحكم العزلة اللي

كنا فيها حصل الحمل بالغلط، ولحكمة مايعلمهاش غير ربنا رزقنا بتوأم. .

مريم: طيب احكيلي يا مُلك الأول موقف الولادة ازاي مرّ عليكي بدون عمليات وبدون حتى توفر أدوات بدائية؟ . .

مُلك: مهما حاولت اوصف للناس حجم التعب اللي كنت فيه ماحدش هيتخيله، أنا جالي الطَلق وأنا في حالة شبه الإغماء من قلة النوم ومن الوجع، وساعتها يوسف صحي على صريخي وماكانش عارف يتصرف ازاي، وماعرفش ازاي برضه في ثواني شالني على دراعه وخرجنا من الكهف، قعدني في البحر وفضلت انازع بدون أي وسايل تخدير لدرجة إني كنت بحسّ بلحمي وهو بيتقطع وبيتفتح حتة حتة، والمياه المالحة كمان كانت كإنها بتكوي الجرح بوجع رهيب، لحد ما ظهرت راس آدم وشوية شوية مع الطلق خرج، احنا كنّا بنسنّ قطع معدنية من أشلاء الطيارة ونستخدمها زي سكاكين. . فساعتها يوسف ادّالي آدم بين دراعي ـ رغم إن ماكانش فيا أي أعصاب ـ عشان يلحق يجيب السكينة يقطع بيها الحبل السُرّي، وأول ما دخل الكهف ندهت عليه بصريخ وقُلتله الحقني يا يوسف أنا بولد، افتكرني بهزي من الوجع لإن ماكناش نعرف إني حامل في توأم، أول ما رجع قُلتله أنا بولد تاني فقطع الحبل بسرعة وربط سرة آدم بشريط رفيع من السعف، ولف الولد في هدومه وسابه

ع الشط ورجعلي، كانت راس مليكة خرجت بس ماخرجش باقي جسمها بسرعة، وساعتها يوسف قعد حوالي ٣ دقايق يحاول يشدها من راسها بالراحة عشان يخرّج جسمها بس برضه ماخرجتش، لحد ما اكتشف إن الحبل السُرّي كان ملفوف حوالين رقبتها، بالراحة قدر يخلّص رقبة البنت من الحبل بس غصب عنه ايده كانت بتيجي في الجرح واحس بألم رهيب، وأول ما خرجت مليكة أغمى عليا تمامًا . .

قالت مُلك جملتها الأخيرة ثم توقفت لمسح دموعها فاستغلت مريم الموقف لتسأل يوسف: كمل لي انت يا يوسف بعدها عملت ايه وكان احساسك ايه ساعتها؟ . .

يوسف: من بداية الموقف أنا كنت حابس دموعي عشان ما احبطش معنويات مُلك بس أول ما أغمى عليها ماقدرتش اتمالك نفسي، ساعتها قعدت ورا ضهر مُلك عشان اسندها وراسها ماتنزلش تحت المياه وأنا بقطع الحبل السري، وبعدها شلت مليكة بأيد ولفيت ايدي التانية حوالين صدر مُلك عشان اقدر أجُرّها شوية لحد الشط، وبعدها ربطت سُرّة البنت ورجعت لمُلك لقيت النزيف مغرق الرمل وماعرفتش اعمل حاجة غير إني قلعت باقي هدومي وحطيتها مكان الجرح وشلت مُلك حطيتها في الكهف، ورجعت للولاد لقيت جسم مليكة مزرقّ جدًا فشطفتهم بسرعة ورجعت بيهم الكهف، طبعا مُلَك

بعدها دخلت في حُمَّى وقعدت أصلّي إن النبض يفضل فيها، كنت خايف جداً يحصل لها حاجة وساعتها ماكنتش هقدر أحافظ ع الأولاد، كنت في حالة هيستيرية كانت ممكن توصلني للجنون فعلًا لو حصل لها حاجة وطول الصلاة كنت بقول إن أنا السبب في كل ده وياريتها ماكانت وافقت نتجوز، بس الحمد لله أول ما فاقت حسيت قد ايه ربنا كبير وإن حكمته أكبر من كل اللي مرّينا بيه. .

في هذا الوقت حاولت مريم منحهما شيء من الاستراحة فطلبت من الكونترول فتح المداخلات، فجاءت أول مداخلة من فتاة عشرينية مسلمة رحبت بهم وقالت إن ما مر به يوسف ومُلك كان خارج إرادتهما وبالتالي ليس على زواجهما حَرَج من وجهة نظرها، بينما المداخلة الثانية فقام بها وزير الثقافة والذي أبدى خلالها اهتمامه بمتابعة الحالة داعيًا الحكومة وخصوصًا وزارة التضامن الاجتماعي لرعاية يوسف ومُلك وطفليهما والعمل على تسهيل ذوبانهما داخل نسيج المجتمع المصري ـ حسب تعبيره ـ، فيما قامت بالمداخلة الثالثة محامية أربعينية مسيحية قالت إنه بالطبع لا يجوز زواج مسيحي من مسلمة لأن القانون المصري لا يسمح بالزواج المدني وبالتالي من الضروري التفريق بينهما كزوجين، وبالنسبة للأبناء فإنه وبحكم القانون المصري أيضًا يكتب الأبناء في شهادات الميلاد على دين أبيهم واسمه طبعًا، إلا

أننا أمام حالة استثنائية، ومن المعروف أن قضايا النسب تتعدد فيها الأحكام الشرعية والقانونية حسب ملابسات كل قضية، ومن الممكن في مثل هذه حالة كتابة الطفلين أو آدم فقط على اسم جده لأمه أي "آدم سليمان عبد العزيز" مثلما يتم التصرف ببعض قضايا النَسَب التي لم يثبت فيها الأب،

مريم: في حال حكم القضاء بكتابة الولد والبنت أو آدم لوحده على اسم جده هتوافق على الحكم ده يا يوسف ولا ممكن تطعن فيه؟ . .

يوسف: القرآن بيقول "ادْعُوهُمْ لآبَائهمْ هُوَ أَقْسَطُ عنْدَ اللّه فَإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإخْوَانُكُمْ فِي الدّين وَمَوَاليكُمْ" ، الأَستاذة قالت إن ده بيتم فَي حالات عدم إثبات نسب الأطفال لأب، ليه ده يحصل طالما أبوه معروف؟! . .

مـــريم: يعني الناس بتتكلم باعتبار إن اسم "آدم يوسف يحيى غبريال" هيخلي الناس تتعامل مع الولد على إنه قبطي وده ممكن يضره لإنه في الحقيقة هو مسلم. .

يوسف: والله أنا مش شايف أي مشكلة في إن الولد يتكتب باسمي، ما هو حضرتك فيه حالات كتير لمسيحيين بيسلَموا وبيغيروا أساميهم الأولى من غير ما يغيروا اسم العائلة، وبعدين أنا برضه عايز بس افهّم الناس حاجة بسيطة وهي إن الأسامي ممكن تختلف في النطق من لغة للغة إنما المقصود بيها واحد،

يعني والدي كان ممكن يبقى اسمه حنا أو يوحنا أو چون كل دي اسامي ترمز للقديس يوحنا المعمدان أو النبي يحيى ابن زكريا عليه السلام وهو شخص معترف بيه في الديانتين مع اختلاف قدسيته، جدي غبريال اسمه بيرمز للمَلَك جابرييل أو جبرائيل أو جبريل عليه السلام وهو ملاك معترف بيه برضه في الديانتين مع اختلاف قدسيته، اقصد إن اختلاف نطق الاسم باختلاف اللغة ماينفيش عن المسمى هويته الدينية إنما ده مجرد تعود فقط في مجتمعاتنا الشرقية، بدليل إن مسلمي الغرب بيسموا ولادهم چوزيف وچون وچاكوب وجابرييل ومايكل وماري وغيرهم من أسماء الرسل والملايكة وذوي القدسية . .

مـــريم: أه بس حسب معرفتي جموع الفقهاء المسلمين بيعتبروا اللي حصل بينكم ده زنا، وبالتالي لا يجوز نسب الأطفال من زنا لأب بحسب رأي معظمهم برضه . .

يوسف: يعني أنا لو كنت كدبت وقلت إني أسلمت واتجوزتها وخلفت منها وبعدين رجعت لديني هتعتبروا العيال كده مش ولاد زنا وهتنسبوهملي؟!، خلاص اعتبروا ده اللي حصل!، ما احنا مش هنقعد نلف وندور حوالين بعض يا اخوانّا!! . .

بعد انتهاء يوسف من رده فتحت مريم المداخلات مرة أخرى، ورغم تحيزها لموقف أختها وزوج أختها حاولت أن تقوم بدورها

الحيادي كإعلامية قدر الإمكان، إلا أن معظم المداخلات من قِبَل الجمهور ـ سواء مسلمين أو مسيحيين ـ كانت هجومية إلى حد كبير، حتى إن المداخلة الأخيرة قام بها رجل خمسيني مسلم هاجم مُلك هجومًا شديدًا لزواجها من مسيحي، مضيفًا استنكاره لفكرة أن يكون لمسلمة ابنة مسيحية على دين أبيها، وقال لها لفظًا قبل أن يُغلق الخط: يا ريتك كنتي مُتّي يا شيخة وانتي بتولدي قبل العار اللي جبتيهولنا. .

المكالمة الأخيرة كانت شرسة إلى حد أبكى مُلك على الهواء ودفعها لتقول: أنا بس بطلب من كل شخص هاجمنا إنه يحط نفسه مكاننا، أي حد منكم كان ممكن يتحط في موقفي أنا ويوسف، وحاولوا تصارحو نفسكم بالحقيقة إن كنتم ساعتها هتقدروا تعيشوا رُهبان ولا غصب عنكم هتتصرفوا زي ما اتصرفنا، احنا مش ملايكة وكنا فاقدين الأمل في رجوعنا من الأساس، وده ماحصلش إلا بعد ٣ سنين وأي حد منكم ماكانش هيقدر يستحمل الحياة دي بالشكل ده ٣ شهور حتى، اتقوا ربنا فينا. .

بكاء مُلك وتوتر الأولاد أثار انفعال يوسف قائلًا: يا أستاذة مريم احنا ناس كنا في عداد الموتى وجوازنا من عدمه ماكانش ضارر حد واحنا منفيين، وربنا أراد إننا نرجع للحياة ولبلدنا وأهلنا من جديد وبرضه مازلنا مش ضارّين حد في شيء، ولو اللي عملناه حرام فحسابنا احنا وولادنا عند ربنا، وأنا بطالب البابا تواضروس التاني

والأزهر الشريف بإنهم يفتوا في حالتنا، واللي هيفتوا بيه احنا راضيين بيه، ربنا كبير ومابينساش حد.

لم يتوقع يوسف هذا الكمّ من السباب والكُره الذي وُجِّه له ولأسرته بعد الحلقة عبر مواقع التواصل الاَجتماعي ـ حيث انصاعت ريموندا لرغبته في إطلاعه عليهمـ ما دفعه لرفض إجراء أي حوارات تليفزيونية أو صحفية أخرى، كما أنه وفي اليوم التالي لإذاعة الحلقة أرسل له أعمامه تحذيرًا من أن تطأ قدماه تراب أسيوط، إلا أنه كان يأمل فقط في أن يحن قلب والده عليه بعد سماع القصة كاملة، لكن قلبه مات قهرًا حين أرسل له أبوه تحذيرًا من أن تخطُ قدماه عتبة شقته!.

....

* * *

القاهرة، صباح الأحد ٣١ أغسطس ٢٠١٤

بعد أيام اجتمع المَجمَع المقدس وأفتى بضرورة فصل يوسف عن مُلك لعدم جواز اعتمادهما كزوجين داخل الكنيسة، مع جواز نسب الطفلين إلى أبيهما ـ حال حكم القضاء بذلكـ، كما طالب بتعميد مليكة كابنة مسيحية أرثوذكسية دون أخيها آدم.

وعلى الجانب الآخر خرجت دار الإفتاء في الأزهر الشريف بفتوى مماثلة تدعو لضرورة فصل مُلك عن يوسف معدّةً ما حدث بينهما سفاحًا، وعليه طالبت بنسب الطفلين إلى أمهما فقط، كما أضافت مَلحوظة للحكومة بتفضيل ترك خانة الديانة شاغرة بشهادتي ميلادهما حتى بلوغهما سن الرشد واختيار ديانتيهما، وألحقت الملحوظة بالآية (٢٩) من سورة الكهف..

بسم الله الرحمن الرحيم.. {وَقُلِ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نَاراً أَحَاطَ بهمْ سُرَادقُهَا وَإِن يَسْتَغيثُوا يُغَاثُوا بمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}. صدق الله العظيم.

كان لدى يوسف ومُلك قبل ذلك بصيص من الأمل ـ سرًّا ـ في عدم التفريق بينهما كزوجين، فكان خروج الفتوتين كوقوع الصاعقة على رأسيهما، فاختلسا قبلة ربما تكون هي الأخيرة!، ورغم تزامن خروج الفتوتين مع الذكرى الثانية لميلاد يُسر ألغت مريم الاحتفال بعيد ميلاد ابنتها، وحاولت هي وريموندا مواساة مُلك ويوسف على مصابهما، بينما كان للفتوتين وقع مريح على أنفس باقي أفراد العائلتين إلى حد كبير.

....

بعد يومين ألغى كل من يوسف ومُلك شهادتيّ وفاتهما واستخرجا شهادات ميلاد جديدة وبطاقات شخصية وبدأ محاميهما في الإجراءات القانونية لتحديد مصير وهوية الطفلين الشخصية والدينية أمام الدولة، وخلال أيام حكم القضاء ـ بعد الرجوع للفتوتين ـ بنسبهما لأبيهما، وملء خانة ديانة آدم بـ(مسلم) وملء خانة ديانة مليكة بـ(مسيحية)، وفور صدور الحكم تولت سيلڤيا مهمة التجهيز لتعميد مليكة، وبالفعل في اليوم التالي تم تعميد البنت في حضور والدها وعمتها وجدتها ودُقَّ الصليب على معصمها الأيمن.

أما عائلة مُلك ـ ورغم ردة فعل الشارع والإعلام الهجومي معظمها ـ كانت تساندها بشكل كبير، عدا أمها التي كانت تحمل على عاتقها هَمّ الناس وكلام الناس، فمريم دشنت حملة إعلامية لضرورة استيعاب يوسف ومُلك وآدم ومليكة بالمجتمع، وخصصت فقرة ثابتة من كل حلقة للتحدث عن ضرورة تقبل الآخر وأسباب اندثار تلك القيمة بمجتمعاتنا العربية خصوصًا عقب ثورات الربيع العربي.

أما الدكتور سليمان فواجه في أولى محاضرات العام الدراسي الجديد موقفًا بذيئًا من بعض الشباب المحسوب على التيار السلفي بالجامعة حيث وصفوه بالديوث، ولعدم قدرته على مبادلتهم البذاءة أعلن خلال المحاضرة الأولى استقالته واعتزاله العمل الأكاديمي في إصرار على موقفه، فقام بعض طلابه بتنظيم تظاهرة للرد على ما تعرض له من إهانة ولمطالبته بسحب الاستقالة.

أما مالك في أول يوم له بالعام الدراسي الجديد سمع أحد زملائه بالكلية يقول ساخراً حين مروره بالمدرّج: هو ده أخو البت المومس اللي اتجوزت مسيحي.

فكان نصيبه من الرد اثنتي عشرة غرزة بطول الرأس!.

....

* * *

السيدة زينب، منتصف سبتمبر ٢٠١٤

لم تكن الزيارات بين العائلتين كثيرة خصوصًا بعد أن عادت سيلڤيا لمنزل زوجها، رغم ذلك حرص يوسف على زيارة مُلك بصحبة مليكة على الأقل مرتين أسبوعيًا، وبعد المشاورة اتفقوا على ضرورة أن تعيش مليكة مع أمها بمنزل جدها على أن يصطحبها يوسف للكنيسة أسبوعيًا حرصًا على إيمانها، وعليه اتفقوا على إلحاق الطفلين بالمدرسة نفسها، وبالفعل التحقا بالمدرسة الخاصة التي تخرج فيها خالهما مالك، ما استوجب على يوسف ترك منزل أخته بمدينة نصر ليكون قريبًا منهم، وسكن شقة متواضعة على أطراف السيدة زينب تناسب ١٢٠٠ جنيهًا دخله اليسير الذي عاد ليحصل عليه كبدل من نقابة الصحفيين، والذي يقتطع جزءًا هينًا منه كمصروف جيب

للطفلين ـ لحفظ ماء وجهه ـ، فيما تكفل جدهما بباقي المصاريف حتى حصول يوسف على عمل.

نظرًا لتأخر تقديم أوراق الطفيلن واعتمادها بالمدرسة تخلف آدم ومليكة عن الحضور لأسبوع كامل، وفي بداية الأسبوع الثاني ذهب يوسف ومُلك بالطفلين لمدير المدرسة لإفهامه ظروفهما الخاصة، خصوصًا كونهما قاربا على بلوغ سن الحادية عشر ما قد يسبب شيئًا من الاغتراب لديهما عن زملائهما بالصف الأول الابتدائي ذوي الخمسة والستة أعوام، وطمأنهم المدير بأنه سيقوم بالتوصية عليهما، وبالفعل مر يومهما الأول على خير، وكذلك الثاني الذي وافق عيد ميلاد مُلك، والذي حضر حفلته يوسف وريموندا وچوزيف، وخلال الحفل سألت مليكة والديها عن سبب الاحتفال بعيد ميلاد والدتها فقط دون الاحتفال بعيد زواجهما مثل كل عام، فردت جدتها چيهان في شيء من التعنيف: عشان أبوكي وأمك خلاص مابقوش متجوزين.

ما وتَّر مناخ الاحتفال بعض الشيء وبدأ في خلق غصة بقلب الطفلة ناحية جدتها، خصوصًا كونها جافة إلى حد كبير في التعامل معها بالمنزل، على عكس جدها وخالها.

ابتداءً من يومهما الثالث بالمدرسة بدأ الطفلان يشعران بشيء من النبذ، فاشتكيا لوالديهما اجتناب زملائهما لهما واجتناب بعض المدرسين إشراكهما بالإجابة عن الأسئلة خلال الحصص، فحاول يوسف ومُلك تفهيمهما أن ذلك أمر طبيعي وسيتلاشى مع الوقت، لكن آدم باغت والدته بسؤال لم تتوقعه: مامي يعني ايه قحبة؟ . .

يوسف: آدم!!، انت جبت الكلمة دي منين؟! . .

آدم : كنت بقول لمروان ازيك عشان اتصاحب عليه قال لي مالكش دعوة بيا ياض يا ابن القحبة . .

يوسف: دي كلمة وحشة ماتقولهاش تاني . .

آدم : طب هي يعني ايه؟ . .

يوسف: شتيمة وحشة يا آدم ماتقولهاش تاني ولو حد شتمك بعد كده اشتكي للأساتذة . .

مُلـــك: آدم خد اختك يلا والعبوا جوّه . .

آدم : حاضر . .

يوسف: أنا ابتديت اقلق ع الولاد، هروحلهم بكرة المدرسة واقابل المدير . .

مُلــك: مالوش لزوم يا يوسف، هما مع الوقت هيعملوا أصحاب ويتعودوا ع المدرسة.

اقتنع يوسف إلى حد ما بكلام مُلك، ولكن في صباح اليوم التالي استيقظ على مكالمة هاتفية منها تصرخ وتبكي خلالها وبالكاد فهم أن مليكة أصيبت في فكِّها وأنهم انتقلوا بها إلى مستشفى المنيرة، فانتقل على الفور للمستشفى ليجد مليكة غارقة في دمائها وفمها لا يكف عن النزف، ما استوجب خياطة بثلاث غرز من الداخل، وبعد أن هدأت البنت أخبرتهم ـ بصعوبة في الكلام ـ أن أستاذ عبد الناصر مدرس اللغة العربية ـالذي رآهما للمرة الأولى اليوم ـ قام بنهرها وأخيها حين علم أنهما أخوة وكل منهما على دين،

عبد الناصر: طلعوا كتاب الدين يا ولاد، والأخوة الأقباط يروحو فصل ١/ ٢ عند أستاذة نيڤين..

مـــــروان: يا مستر الواد والبت دول اخوات وهو مسلم وهي مسيحية..

عبد الناصر: اخوات ازاي يعني؟!، اقف ياض انت وهي، انتو اخوات فعلًا؟..

آدم : أه يا مستر..

عبد الناصر: أساميكم ايه بالكامل؟..

آدم : آدم يوسف يحيى ومليكة يوسف يحيى..

عبد الناصر : ايوة ايوة، هو انتو ولاد الواد والبت المتخلفين بتوع حادثة الطيارة؟، يعني من كل مدارس الدنيا مالقيتوش إلا مدرستنا وتتحدفوا عليها! . .

مليـــكـــة : ماتقولش على بابي ومامي كده . .

عبد الناصر : بس يا بت انتي هتردي عليا كمان!!، امشي يلا على الحصة بتاعتك، واطلع انت كمان ورا اختك مالكش عندي حصص دين لحد ما يبانلكم أهل . .

مليـــكـــة : انت مش محترم وأنا هقول لبابي ومامي على اللي قُلته . .

عبد الناصر : انتي بتشتميني يا حيوانة؟ . . .

ثم قام بصفعها صفعة قوية أدمَت فمها وقال : امشي اشتكيلهم يلعن اليوم اللي ابوكي زرع فيه بذرتك .

على الفور توجّه يوسف للمدرسة وسأل عن عبد الناصر هذا وفور رؤيته انهال عليه بالضرب، وبالكاد تمكن المدرسون من تخليصه من تحت يد يوسف بعد أن كسر له أنفه، ثم توجّه يوسف لمكتب المدير وسبّه لعدم حفاظه على الأمانة ثم سبّ المدرسة مطالبًا بسحب أوراق الطفلين، وبالفعل سحب الأوراق وقام في اليوم التالي بتقديمها في مدرسة خاصة لغات بحيّ جاردن سيتي .

....

مدينة نصر، عصر الخميس ٩ أكتوبر ٢٠١٤

كان له قرابة ثلاثة أسابيع لم يزُر منزل أخته، فقرر قضاء يوم معها ومع چوزيف الذي يعشقه لأنه يشبهه كثيراً،

- عاش من شافك يا چو . .
- وحشتيني يا ريموندا . .
- انت كمان يا حبيبي وحشتني، أخبارك ايه؟ . .
- الحمد لله، أومال الواد چو قريني فين؟ . .
- رجع من المدرسة نام، هخش اصحيهولك . .
- لأ خليه نايم شوية . .
- مالك يا يوسف مش عاجبني!، الولاد فيهم حاجة؟، المدرسة الجديدة مش عاجباهم؟ . .
- الأسبوع ده من بدايته اجازة عشان عيد الأضحى انتي عارفة، بس الأسبوع اللي فات راحوه كله وأهو ماشيين فيها كويس أحسن من المدرسة القديمة بكتير، وكمان سارة بنت خالتهم معاهم في الفصل وده مهون عليهم شوية إن مالهمش أصحاب، بس برضه حاسس إن العيال مش متقبلاهم والمدرسين بيضايقوهم من تحت لتحت، حتى أنا مش لاقي جرنال قابل يشغلني وجدّ الولاد هو اللي متكفل بمصاريف دراستهم وطبعًا غالية جدًا . .

- مستغربة جداً الحوار ده!، رغم إن المفروض يستفيدوا من تجربتك كصحفي..
- أنا كنت فاكر زيك كده أول ما رجعت..
- طب ليه ماطلبتش من مريم تشتغل معاها في القناة اللي هي فيها؟..
- مريم لو في ايدها حاجة مش هتتأخر، كتر خيرها أوي على اللي عملته وبتعمله لحد دلوقتي، بس واضح إن صاحب القناة رافض الموضوع ده وإلا كانت عرضته عليا بنفسها، الناس بقت وحشة أوي يا ريموندا، الاضطهاد لينا وللأولاد حتى بالنظرات في الشارع بقى فوق المحتمل، لدرجة إن مُلك بطلت تخرج من البيت حتى لشرا الطلبات، والحكومة عاملة نفسها مش واخدة بالها مننا وكأنها بتقول للناس جبناهملكم في شوال خلصوا حسابكم معاهم، وحتى دعوة وزير الثقافة عملولهاَ ودن من طين وودن من عجين، هو ايه اللي بيحصل!..
- العالم اتغير كتير من يوم ما غبتوا يا يوسف، ثورات وحروب ودمار في كل حتة من أول دخول أمريكا العراق لحد الحروب الأهلية في سوريا وليبيا وظهور واستفحال داعش، إذا كان حادثة ١١ سبتمبر غيرت نظرة العالم الغربي كله تجاه المسلمين لحد يَومنا هَذا، ورغم إن العالم العربي بيستنكر ده بشدة إلا إننا للأسفَ بنعمل زيهم مع أي مختلف عننا..

- بس المصريين بالذات ماكانوش كده! . .

- البلد حصل فيها ثورتين ماكانش حد يتوقع أبدًا إنهم يحصلوا، ورغم إيجابيات ثورة يناير في إنها عرّفت الناس إن صوتهم أقوى من النظم إلا إنها للأسف طلَّعت أسوأ ما في الشعب ده وهو إن كل واحد مقتنع بدماغه ومعسكره وبس وماحدش قادر يتقبل الآخر، على فكرة أنا قبل كده سبت البيت لمينا ورُحت قعدت عند بابا وماما فترة بسبب آراؤه السياسية، ولما لقيت إن رأيهم مايختلفش عن رأيه كتير وإن التلاتة مِ البداية مش مقتنعين حتى بالثورة ابتديت اعلّم نفسي مقولة "السياسة لله والوطن للجميع"، زي الدين كده بالظبط اعتنقه بس ماتخسرش المختلف عنك عشان مانتبرّاش من بعض. .

- بس ابوكي بقى اتبرّى مني وأهله هددوني بالقتل لو عتّبت البلد؟! . .

- اعذرهم يا يوسف، انت عارف عمامك وطبيعة مجتمع الصعيد قد ايه متحفظ ومش سهل يقبلوا كلام الناس باعتبار اللي عملته جابلهم العار، ومهما كان فبابا اتربّى وعاش شبابه كله في المجتمع ده وطبيعي إنه يحمل طبعهم مهما خرج برّاه. .

- ولحد امتى هفضل متيتّم كده ومحروم من شُفته؟ . .

- أنا كنت لسه عنده امبارح وحاولت أفَاتحُه في الموضوع بس هو لسه مزرجن شوية، صدقني مسألة وقت وهو بنفسه هيطلب يشوفك. .

- أنا بفكر أظهر مع لميس الحديدي أو وائل الإبراشي أو حتى أحمد موسى وأحاول أكلم الناس بشكل إنساني واطالب الدولة بإنها تأمنًا أكتر من كده من الاضطهاد ده. .

- فكرة كويسة بس هيبقى أفضل لو أجريت حوارات مع مؤسسات عالمية توصل صوتكم برّه. .

- مراسلين كتير كلموني من قنوات وصحف عربية وأوروبية، بس مش عارف ليه مش بالع فكرة إني اشتكي للغرب من أهل بلدي. .

- مش فكرة شكوى بس الناس لازم تتعود تتقبل المختلف، وآديك قُلت الحكومة متجاهلاكم مع إنكم لو مواطنين في أي دولة غربية كانت هتعاملكم كثروة، أنا كانت عاجباني جدًا الحملة اللي اتبنتها مريم في برنامجها بس للأسف ماشُفتش منها أي جدوى ملموسة لحد دلوقتي، صدقني أي وسيلة إعلام مصرية هتتاجر بقضيتكم لصالحها أكتر ما هتحاول تساعدكم. .

- خلينا بكرة نتشاور في الموضوع ده مع مُلك، بالمناسبة بكرة عيد ميلاد آدم ومليكة وهنعمله في بيت جدّهم، وفرصة إنه يوم جمعة يعني مينا مايقدرش يتحجج بالشغل لازم ييجي معاكم. .

ـ بمشيئة ربنا، كل سنة وهما طيبين.

....

بعد ظهر اليوم التالي حضر يوسف وريموندا ومينا وچوزيف وسيلڤيا كما حضر محمود ومريم وسارة ويُسر لمنزل الدكتور سليمان، وأقيم حفل عيد ميلاد كبير لآدم ومليكة وسط أجواء حميمية إلى حد كبير، وفي الأثناء عرضت ريموندا على الجَمع اقتراحها بأن يظهر يوسف على وسائل الإعلام الغربية، وجاءت الآراء معظمها بمباركة الخطوة، وبالفعل خلال أسبوعين كان قد أجرى أربعة حوارات مع Fox News الأمريكية وDW الألمانية وFrance 24 ووكالة أنباء Reuters البريطانية، وحينها سارعت أستراليا وكندا والولايات المتحدة وبعض دول أوروبا وحتى إسرائيل لاستغلال الموقف وعرضوا عليهم الهجرة والتجنيس باعتبارهم لاجئين دينيين، وأيّد الطفلان هذه الفكرة بشدة معلنين بغضهما لهذه الأرض وهذا الشعب الذي لم يقابلهما إلا بالنبذ والتهديد، لكن يوسف ومُلك رفضا المبدأ من الأساس وبشدة، كونهما نُفيا عن وطنهما لقرابة خمسة عشر عامًا، ولن يَسمحا لأحد أن يحرمهما منه أكثر من ذلك.

....

* * *

السيدة زينب، منتصف نوفمبر ٢٠١٤

مع مرور الوقت وبقاء الحال على ما هو عليه دخل يوسف في حالة اكتئاب بشعة، وكان قد بدأ في التفكير بالعمل كـ(كاشير) في أي محل تجاري أو حتى نادل في أي مقهى، ولكن نفسه لم تطاوعه على دفن ما تقدم من عمره ـ بعدما دُفنَ ما تأخر قسرًا ـ بمهنة خلاف مهنته التي يعشقها، فاعتمد اعتمادًا كَليًّا في مصاريفه على بدل النقابة، وانقطع عن زيارة منزل الدكتور سليمان مكتفيًا بزيارة الأطفال له يومًا بعد يوم، خصوصًا بعد علمه بأن والدة مُلك تحاول الضغط عليها لتتزوج بينما مُلك ترفض الأمر، فيما لا يستطيع هو التدخل في الأمر.

كان يحتاج لمُلك في تلك اللحظات أكثر من أي شخص وأي شيء آخر، فهي نصفه الآخر بمعنى الكلمة، بل مرآته التي اعتاد أن يرَ فيها نفسه دومًا، هي التي كانت تمثّل الزَوجَ والأهلَ والصديقَ والرفيقَ طوال سنوات وشهور وأيام وساعات لو عدّها لخجلت من تفريق الزمان بينهما الآن، وكان يرى في نظراتها له كم تعشقه وكم تتألم لوضعهما الحالي، لكنه كان يرى فيها أيضًا لمحة استسلام مميتة لكليهما، وكأنها صارت جسدًا بلا رُوح، أو رُوحًا بلا جسد لا تستطيع أن تحرّك ساكنًا، ولا تفعل شيئًا سوى انتظار موعد صعودها إلى الجنة التي ما زالت تدفع ثمن استحقاقها تعاسةً وشقاء، فكانت تلك اللمحة أكثر ما يزعزع إيمانه وتجعله يتحدث إلى الرب بداخله معاتبًا:

هل هذا حقًا ما أردته لنا؟، هل كان التقاء أجسادنا حلالًا بالمنفى وصار حرامًا الآنَ؟، هل الناس هم المقياس الذي تضع به نواميسك وفقًا لما يرضيهم؟، هل أنت راضٍ عن إقناعك لها بأن تتركني بغية فردَوسك المعهودة؟، وإن كان أحدناً يسير بالفعل في الطريق الصحيح للَجنة هل سيكون هانئًا والآخر يُشوَى في النار؟، أم سيعيش مُعذَّبًا أبد الدهر بدار الخلود؟!.

كل تلك الأفكار المجنونة والظروف الصعبة كانت تدفعه بشدة للانعزال وكأنها تَئدُه، فدفنَ نفسه داخل غرفته كل الوقت طوال شهر كامل؛ لا يخرج منَها إلا لقضاء حاجته أو فتح باب الشقة لفتى توصيل المشتريات، ولم يخرجه من عزلته سوى سماعه خبر وفاة والده!.

....

* * *

وسط القاهرة، الاثنين ١٥ ديسمبر ٢٠١٤

كان الخبر أشد عليه من ألم الحرق حيًّا، فقد كان لدى يوسف أملًا في أن يرى عيني أبيه تنظران له لا أن ينظر هو لجفنيه المغمضين، وأن يحتضنه ولو لمرة وحيدة قبل أن تصعد روحه هو، ولكن صعود روح أبيه غاضبة عليه جعله كمن يجرّ صليبًا من فولاذ أوشَك أن ينقلب فوق ظهره فيَدعَسه، فذكرياته مع أبيه الحنون أخذت تضرب رأسه في

اليقظة والمنام؛ كم كان يشبهه، وكم كان أقرب إليه من نفسه، وكم مرة أنقذ إصبعه من بين فكّي أمه المفترس حين يخطئ أو يذنب، وكم سرًّا أسَرَّ به لأبيه دون غيره حتى ريموندا وديڤيد، وكم حجر معسّل دَخّناه سويًّا كأصدقاء من الجيل نفسه، وكم فنجال قهوة زيادة صنعه لأبيه المريض بالسكري خلسةً من وراء أمه؛ كم كان أحنّ عليه من أي مخلوق حين يخطئ، وكم كان أقسى عليه من كل البشر بسبب ذنب دفعته الظروف إلى اقترافه!.

كان يحيى قد أوصى مسبقًا بدفنه في مسقط رأسه بأسيوط، فلم يستطع يوسف حضور الدفن، لكن عزاءه حيال ذلك كان في استطاعته أخذ العزاء في القاهرة دون الخوف من مقابلة أعمامه الغاضبين، فاستقبل المعزّين الذين توافدوا إلى منزل والده ووالدته بوسط القاهرة ومن بينهم أسرة مُلك، بينما حرصت مُلك على زيارته بصحبة الأولاد يومًا بعد يوم، ولم تكن زياراتها ـ المفهوم سببهاـ محببة بالنسبة لچيهان ولا بالنسبة لسيلڤيا كذلك، لكن ما كان يعانيه يوسف من خَرَس في تلك الفترة كان كفيلًا بإخراس الجميع.. حتى تحسنت حالته النفسية شيئًا فشيء.. وساءت حالة مُلك شيئًا فشيء، فقد استطاعت على مدار أربعة أشهر أنْ تقبض على قلبها وأنْ تقنع نفسها بأنَّ وضعهما الجديد ما هو إلا فرصة من الله للتكفير عما ارتكباه من ذنوب بالجزيرة، أو أنه ـعلى أقل تقديرـ اختبارٌ لإيمانهما وإثبات

صدق نياتهما بأن الدافع وراء الزواج كان الظَرف لا مجرد إرضاء الشهوة، لكن كل ذلك بات في مهب الريح الآن أمام رؤيتها هوان يوسف وقهره ووحدته؛ فكيف لها أن ترَ الشخص الذي احتضنها لاثنتي عشرة سنة يبكي من القهر دون أن تحتضنه؟!، وكيف لها أن ترَ الحُزن ينخُر كالسوس في صدره وتتركه له وجبة هانئة حتى يرديه كما أردى أبيه؟!، وكيف لها أن ترَهُ مُطبقًا فمه على لسانه حد الخَرَس وتتجنب التحدث إليه ولو بأقل العباراَت؟!، فقد كانت تعلم أن أحداً لن يقدر على إخراجه من تلك الحالة غيرها، فلم تقدر على ترك يده في تلك المحنة وهو الذي لم يترك يدها أبدًا، وحين بدأت البسمة في الارتسام على عينيه.. كانت الدمعة قد جَرَت إلى شفتيها!.

....

* * *

وسط القاهرة، أواخر يناير ٢٠١٥

بعد مرور (أربعين) والده ترك يوسف شقة السيدة زينب تمامًا وانتقل للعيش مع والدته، أما مُلك فلجأت إلى الالتزام بالصلاة والمواظبة على قراءة القرآن بشكل أكبر حتى يعيناها على مغالبة ضعفها أمام يوسف، حتى إنها لم تعد تجلس معه إلا دقائق معدودة حين يزورهم لمقابلة طفليه؛ فبمجرد التقاء أعينهما تنسحب إلى غرفتها

في ارتباك واضح، وعليه قلّت زياراته لمنزل الدكتور سليمان منعًا للحرج والألم، وبدأ حينها في استيعاب ضرورة مجاراة الحياة وأخذها على قدر عقلها حتى موعد اللقاء السماوي، فشرعَ في استغلال وقته بتدوين مذكراته إلى جانب الاطلاع والبحث والقراءة عن مصر خاصةً والعالم عامةً منذ نُفيَ بأرخبيل الملايو في مطلع الألفية الفاشوش!، وتعلم كيفية التعامل مع موقعيّ التواصل الاجتماعي فيسبوك وتويتر، وبدأ على صفحته الشخصية في عرض آرائه وتحليلاته لفكر المجتمع والأسباب التي أثرت على تغيره وتطوره سلبًا وإيجابًا، بجانب سَرد مواقف حدثت له ولآدم ومليكة خلال تعاملهم مع الناس، وكان الكثير يتربص له وينتقد آراءه وكلامه بشكل لاذع يصل للسباب البذيئة أحيانًا، إلا أنه وللمرة الأولى وجد عدد كبير من الناس يتابعه ويقف معه ويرد عنه أحيانًا، وخلال أربعة أشهر فقط صنع يوسف لنفسه قاعدة كبيرة من المتابعين، فشعر أنه قد وجد في هذا العالم الموازي ضالته المنشودة.

* * *

لندن، أواخر مايو ٢٠١٥

في محاولة منها لتحريك المياه الراكدة عرضت سيلڤيا على يوسف أن يسافر معها إلى إنجلترا بأواخر الشهر لزيارة أبناء خالتها كما اعتادت

كل عامين، ولكنه رفض متعففًا لعدم امتلاكه المال الكافي وحتى لا يثقل على والدته أكثر مما يجب، ولكنها أغرَت آدم ومليكة بالسفر بهدف استخدامهما للضغط عليه، فانصاع في النهاية لرغبتهم وبالفعل سافر أربعتهم.

لم تكن لندن مبهرة بالنسبة لآدم ومليكة كونهما لم يدركا بَعد الفرق بينها وبين طرة الأسمنت!، ولكنها هذه المرة كانت مبهرة جداً بالنسبة ليوسف، فقد تطورت خلال ستة عشر عاماً ستة عشر ضِعف تطور القاهرة خلال الفترة نفسها.

كان يشعر من البداية أن والدته لم تعرض عليه السفر معها من باب (تغيير الجو) كما ادّعت، وتأكدت شكوكه حين عرض عليه "روبرت" أحد أبناء خالتها العمل معه في شركته التي تعمل بمجال التصدير، وحاولت والدته دفعه لقبول العرض،

سيلڤيا: انت ليه موافقتش على عرض روبرت؟..

يوسف: مش عايزُه..

سيلڤيا: ليه بس يابني؟..

يوسف: عشان أنا لو عايز اقعد هنا كنت جيت من بدري..

سيلڤيا: وانت لقيت ايه في مصر يخليك تبقى عليها؟، عاجباك قعدتك في أوضتك ٢٤ ساعة في اليوم دي؟..

يوسف: أنا ماقدرش ابيع ولادي وافضل قاعد هنا . .

سيلڤيا: ماتاخدهم وعيشوا سوا هنا، هما أصلًا ماعندهمش لسه أي انتماء لمصر . .

يوسف: عندهم أمهم يا أمي، أمهم اللي مش هينفع يطلعوا من حضنها في وقت زي ده . .

سيلڤيا: اتجوز هنا يا يوسف ومراتك الجديدة تربيهم، ومُلك كمان صغيرة ومن حقها تتجوز يابني واستحالة تعيّش ولادك مع جوز أم . .

يوسف: مُلك استحالة تتجوز بعدي، احنا ماكناش مجرد زوجين احنا كنا شركا في صراع ضد كل ظروف الموت الممكنة وماكانش لينا غير بعض، اللي بيننا مش سهل أو قليل عشان تضحّي بيه، وحتى لو هي ضحّت أنا استحالة اتجوز بعد مُلك، لو كانت لسه في حضني كنت أخدتها وأخدت الولاد وجينا عشنا هنا أو في أي بلد تانية من اللي عرضت علينا اللجوء، بس خلاص أنا وهي ماينفعش نعيش مع بعض تاني، والولاد محتاجيننا احنا الاتنين، عشان كده لازم نفضل في مصر . .

سيلڤيا: مش عارفة اقول لك ايه يابني، أنا صعبان عليا حالك ده يا حبيبي . .

يوسف: ربنا موجود يا أمي، ولما نرجع يدبرها .

قبيل مغادرتهم لندن بأيام أجرى يوسف لقاءً تليفزيونيًا مع هيئة الإذاعة البريطانية BBC، سرد خلاله وضعهم الحالي متطرقًا لاستمرار تجاهل الحكومة حالتهم رغم مرور ثمانية أشهر على عودتهم إلى مصر، وفي اليوم نفسه انتشر اللقاء مترجمًا على مواقع التواصل الاجتماعي، واستشرت حملة إعلامية مضادة ليوسف على الفور كالنار في الهشيم، حيث بدأت جُلّ برامج التوك شو المصرية في مهاجمته بدعوى أنه شكى بلده وأهلها للغرب، رغم أنه لم يفتَرِ عليهم في شيء ولم يقُل أكثر من أنهم يواجهون اضطهادًا دينيًا ومجتمعيًا وأنه لم يُقبَل للعمل بأي مؤسسة إعلامية مصرية، إضافة إلى الحديث عما يواجهه من تطاول وسباب على صفحاته الشخصية بمواقع التواصل الاجتماعي، كما طالب بعضُ الإعلاميين والصحفيين نقيبَ الصحفيين بشطبه من النقابة، فيما طالب البعضُ الآخر بسحب الجنسية منه ومن أسرته، لدرجة أن أحدهم ـ ممن فكر يوسف في الظهور الإعلامي معهم من قبلـ حمل على عاتقه تهديده وتهديد عائلته وعائلة مُلك على الهواء قائلًا: يا دكتور سليمان حضرتك دكتور جامعي محترم وابن السيدة زينب وتعرف الأصول، يا ريت تفهّم بنتك تبلّغ جوزها أو اللي كانت متجوزاه ـمانعرفش أنهي جواز ده!ـ بإنه مايطوّلش لسانه على المصريين ويخاف على سمعة وشغل أخته اللي بتشتغل في حكومة مصر، مصر اللي رجعتهم للحياة من جديد بعد ما اتكتبت شهادة وفاتهم، ولولاها كان زمانه هو وبنتك وأحفادك مالهمش هوية زيهم

زي الـ(بدون) بتوع الكويت، ولولا إن المصريين كمان يعرفوا الأصول يا حاج سليمان كان زماننا سلمناهم لأبو بكر البغدادي زعيم داعش اللي طالب رقبتهم.

ولم يقف أمام هذه الحملة الشرسة سوى بعض النشطاء السياسيين وبعض صحفيي الرأي، إلى جانب مريم التي طالها من الهجوم والتشهير والمعايرة نصيب هي الأخرى، حتى إن زملاءها طالبوا وزير الإعلام بالتدخل والضغط على مالك القناة التي تعمل بها لوقف برنامجها، وبالفعل قررت إدارة القناة تعليق البرنامج لمدة شهر في شكل إجازة حتى يهدأ هذا الهَرَج.

* * *

القاهرة، يونيو ٢٠١٥

مع عودته إلى القاهرة لمس يوسف عن قرب حجم ما بلغ بالمجتمع المصري والعربي بشكل عام من احتقان ورفض للآخر حتى وإن لم يضر هذا الآخر غيره في شيء، وشعر لأول مرة بأنه لن يستطيع ـ مهما جاهَدـ تأمين مستقبل طفليه والاطمئنان عليهما داخل هذا المجتمع، خصوصًا وأن عالمه الافتراضي هذا لن يوفر له ولهما حياة كريمة أو حتى مصدر دخل، حتى شارف على الدخول في نوبة اكتئاب جديدة، ورفَض دعوات أهله للاحتفال بعيد ميلاده في نبرة اليائس المنتظِر

للاحتفال بثورة أخلاق لن تقوم، ولكن ما هو إلا أسبوع وتلقى مكالمة هاتفية من إحدى دور النشر تعرض عليه نشر قصته معلنة استعدادها توفير التسهيلات والشروط التي يطلبها، فاستثارته الفكرة ولكنه طلب منحه فرصة للتفكير، وبعد مشاورة مُلك وريموندا عزم يوسف الموافقة خصوصًا وأنه دوّن الكثير من القصة بمذكراته، وبالفعل شرعَ في تسجيل تجربتهم كاملة في رواية حملت عنوان *((الأرخَبيل))* .

....

* * *

أرض المعارض، الأربعاء ٢٧ يناير ٢٠١٦

كان شديد القلق من أن يفشل في أمله الوحيد الباقي للتشبث بالحياة في مصر، كونه كان على شبه يقين من أن المجتمع لن يقبلهم مهما فعل، ولكن منذ يومها الأول بمعرض القاهرة الدولي للكتاب حَظيَت ((الأرخَبيل)) باهتمام كبير على المستويين الجماهيري والإعلامي، ما أدهشه من غرابة فكر الناس، فكم يعشق هذا المجتمع التفتيش عمّا ينبذه! ، وعلى الرغم من أن جُلّ ذلك الاهتمام والتركيز انصبّ على الرواية دونه كان يشعر بالرضا حين انتهى المعرض بعد خمسة عشر يومًا بنفاد خمس طبعات من الرواية، بل وشعر بشيء من النصر حين عرضت مؤسسة إنجليزية بعد أقل من شهرين ترجمة

الرواية، ومع مرور الوقت ونفاد الطبعات وزيادة الترجمات استطاع يوسف توفير ما يسد احتياجات طفليه، وأصر حينها على إعفاء جدهما من مصاريف دراستهما، واستقر وضع الأسرة المادي بعض الشيء، خصوصًا بعد أن بات يوسف كاتب رأي في عدد من الصحف الأجنبية، إلا أن الوضع المجتمعي ظل متوتراً، وهكذا سارت حياة أسرتهم غير الهادئة ولا الهانئة على طول الخط.

* * *

القاهرة، الأحد ٢١ يونيو ٢٠٢٠

على مدار ست سنوات منذ وطأت أقدامهم تراب مصر لم يتقبلهم المجتمع كل القبول، فهناك من كان يعاملهم بودّ ـ وهُم قلائل ـ ، وهناك من كان يمارس عليهم التحرش فعلًا أو لفظًا ـوهُم كُثُر ـ، وهناك من كان يجلدهم بالنظرات فقط ـوما أكثرهُم ـ، ولو كان يعلم يوسف أن الكاميرات ستفعل بوجوههم كل ذلك ما كان ليظهرهم عليها مطلقًا!، ولكن ما عجز يوسف عن فعله قديمًا قرر أبناؤه فعله حاليًا كتصحيح للمسار، وفاتحوه فيه خلال احتفال خاص بثلاثتهم بذكرى عيد ميلاده الرابعة والأربعين،

آدم : كل سنة وانت طيب يا بابا..

يوسف: وانت طيب يا حبيب بابا..

مليـــكة : كل سنة وانت طيب يا أحلى بابي . .

يوسف : وانتي طيبة يا حلا بابي . .

آدم : بابا احنا كنا عاوزين نفاتحك في موضوع كده . .

يوسف : خير يا حبايبي . .

آدم : احنا مش عاوزين نكمل حياتنا في مصر . .

يوسف : ليه يا ولاد؟ ! . .

مليـــكة : انت عارف ليه يا بابي . .

يوسف : ايوة يا حبيبتي بس انتوا عارفين إن أنا وماما مانقدرش نسيب مصر . .

مليـــكة : ليه ماتقدروش؟ . .

يوسف : عشان دي بلدنا . .

آدم : بس مش بلدنا يا بابا . .

يوسف : مهما حصل برضه اسمها بلدكو يا آدم . .

آدم : مهما حصل؟ ! ، انت متخيل يا بابا "مهما" دي ممكن توصل لإيه؟ ، انت مستني حد فينا يتقتل ولا يتشوّه ولا يتخطف؟ ، بلاش كل ده . . انت مستحمل علينا الإهانة والرفض اللي

بنشوفهم في عيون الناس؟ ، أنا مش قادر افهم يعني انتو ازاي متمسكين بيها بعد كل اللي بيحصل لنا ده! . .

مليـــكة: بابي ما هي England برضه بلدنا ونقدر بسهولة ناخد الجنسية . .

يوسف: بس أنا وماما ماينفعش نعيش سوا وانتو عارفين كده كويس ، مضطرين نستحمل الوضع ده . .

آدم : لأ يا بابا مش مضطرين ، أنا آسف بس دي الحقيقة ، جيل حضرتك عنده استعداد يصبر ويستحمل ويربط الحزام عشان يفضل في بلده ويعيش وسط ناسه حتى لو بلده بايعاه وناسه رافضينه ، إنما جيلنا بلده هي اللي تعامله كإنسان ، وناسه هما اللي يحترموا اختلافه عنهم طالما مابيأذيش حد . .

يوسف: اللهجة دي جديدة عليك يا آدم . .

آدم : مش جديدة يا بابا وكتير حاولنا ننبه حضرتك ليها بس ماكنتش عاوز تسمح لنفسك تسمعنا . .

يوسف: وأمكم رأيها أيه في كلامكم ده؟ . .

مليـــكة: احنا قولنا لمامي خلاص ، وهي من زمان عارفة إننا عاوزين كده بس كانت بتأجل الكلام في الموضوع . .

يوسف: يعني ايه قُلتوا لماما؟!، هي وافقت تسافر معاكم؟..

مليـــكة: لأ..

يوسف: أومال انتو عايزين ايه أنا مش فاهمكم؟!..

آدم : أنا ومليكة قررنا نهاجر يا بابا..

يوسف: قررتوا؟!، قررتوا يعني ايه؟..

آدم : احنا already كلمنا أونكل روبرت يخلص لنا الأوراق المطلوبة في لندن..

يوسف: انتو عايزين تعيشوا لوحدكو في لندن وانتو في السن ده؟؟..

مليـــكة: احنا مش صغيرين يا بابي، احنا قربنا نتم ١٧ سنة، يعني عدينا سن الرشد بالنسبة للـUK..

آدم : يا بابا أرجوك فكر في مستقبلنا، اللي قدنا دلوقتي داخلين جامعات واحنا يادوب لسه واخدين الابتدائية!، لو فضلنا هنا مش هنخلص دراسة إلا بعد ١٠ سنين على الأقل، إنما هناك الموضوع هيتحل ببساطة وهنقدر نتخرج ونشتغل في سن مناسب..

يوسف: ازاي قدرتوا تقنعوا أمكم؟..

آدم : ماما . . . ماما ماكانتش بتقول غير جملة واحدة "كنت عارفة إن اليوم ده هييجي" . .

خانت يوسف دمعة حاولت التسلل في خفاء، وشعر الشابان بألم على والدهما فقالت مليكة: بابي احنا بنحبكم أوي ومانقدرش نستغنى عنكم بس أنا عارفة إن مامي ماتقدرش تعيش برّه مصر، وإنك مش هتقدر تيجي معانا عشان مامي ماتفضلش هنا لوحدها من غيرنا كلنا، بس ماتخافش علينا تيته قررت تيجي معانا، واحنا اتفقنا معاها ننزل مرة كل سنة، وإنك تجيب مامي وتزورونا مرة في السنة . .

يوسف: انتو مظبطين كل حاجة كمان مع أمكم وجدتكم وأنا آخر من يعلم؟ . .

آدم : العفو يا بابا، احنا بنحبك أوي وعارفين انت قد ايه بتحبنا، بس كنا عارفين برضه انت قد ايه شايل همّنا وخايف علينا، واحنا ماقررناش نعمل كده إلا عشان نطمنك . .

خيَّم الصمتُ على الموقف والجمودُ على وجه يوسف لدقيقة قبل أن يقول: وناويين تسافروا امتى؟ . .

آدم : بعد أسبوعين . .

يوسف: بالسرعة دي؟! . .

مليــكة: يا دوب يا بابي عشان نلحق نخلص ورق الجنسية والمدرسة قبل السنة الدراسية الجديدة.

لم يتمالك يوسف نفسه فضمّهما إلى صدره وأجهش بالبكاء.. وأجهشا معه.

....

* * *

مطار القاهرة الدولي، يوليو ٢٠٢٠

منظرهما يعبران بوابة المطار ذكّره برحلته المشؤومة، فشرد متمنيًا لو لم يعبر ومُلك هذه البوابة قط، ثم انتبه بعد لحظات إلى أن تلك الرحلة كانت السبب في مُلكه، فنظر لمُلك وشعر وكأن أربعتهم يشكلون أرخبيلًا بالفعل، فقدَ كانوا كجزيرة كبيرة ثار بها بركان عملاق فحرَّك الصفائح التكتونية من تحتها ومزّعها إلى جزر متناثرة، هو بمنزل وزوجته بآخر وملاكاه ببلد بعيد قد يفرّقهما بفعل برودة طقسه!، كل محاولاته للحفاظ على وِحدة أسرته باءت بالفشل، في تلك اللحظة كان يتمنى لو يستطيع العودة بهم إلى جزيرتهم رغم كل ما عانوه هناك من صراعات، فربما كان يعلم في قرارة نفسه بأن يوم تشرذمهم هذا سيأتي عاجلًا أم آجلًا، وربما أوهَم نفسه بأن طفليه لن يقدرا على ترك مصر وتراب مصر وغبار مصر وتكدُّس مترو

أنفاقها! ، لكن ما لا شك فيه هو علمه الجيد بأن بركان آدم ومليكة ما كان ليثور لولا ما عانياه من غليان، وأن بركانه أوشَك أن يخمَد الآن . . وإلى الأبد! ،

ـ ريموندا . .

ـ نعم يا يوسف . .

ـ أنا عايز أزور قَبري .

* * *

إهداء خاص

- إلى أمي التي تحمّلت حالاتي النفسية غير المفسّرة أثناء الكتابة بدعم وفخر لا متناهيان.

- إلى "محمد إبراهيم عبد الجواد" . . أبي الذي وافق على التنازل عن اسمه ـعلى مضض في البداية ثم عن طيب خاطرـ من أجل إلحاق اسمي بلقب العائلة. روّق بقى أومّال يا حاجّ!

- إلى أخي الوحيد "أيمن" . . أحَبّ خلق الله إلى قلبي والذي أعلم ـ سرًاـ أني أحَبّهم إلى قلبه.

- إلى "بسمة" . . أول من انتظر *"مُلك يوسف"* وأكثرهم صدقًا في انتظارها . . وانتظاري.

- إلى "مزايا" و"منتَظَر" . . مُلك إبراهيم الذي لم أمتلكه بَعد.

شكر خاص

- الإعلامية "آلاء طاهر"
- الروائي "محمد أحمد إبراهيم"
- الساخر "أحمد عبد الفتاح"
- الشاعر "مروان صبحي"
- السيناريست "آلاء علي زكي"
- المحامية "ياسمين الشناوي"
- الصديق "مينا يوسف"
- الصـدوقـة "نانسي فارس".

- شُكر خاص لأحد القساوسة الأقباط وأحد شيوخ دار الإفتاء المصرية ـواللذان فضّلا عدم ذكر اسميهماـ، والشكر موصول لكل من ساهم بمعلومة أو رأي في *"مُلك يوسف"* أو أحد أجزائها منذ شرعت في كتابتها بأغسطس ٢٠١٤ وحتى خروجها إلى النور في ديسمبر ٢٠١٦.

في انتظار تواصلكم **facebook.com/bika.68**

تفكير للنشر والتوزيع